

سورة الفتح

مدنيّة بإجماع، وهي تسع وعشرون آية. ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبِيَّة. روى محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم، قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبِيَّة من أولها إلى آخرها^(١).

وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه؛ فقال عمر بن الخطاب: نكلت أم عمر، نزلت رسول الله ﷺ ثلاث مرّات كل ذلك لم يجبك؛ فقال عمر: فحرّكت بعيري ثم تقدّمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فيّ قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي؛ فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، فجنّ رسول الله ﷺ فسلمت عليه؛ فقال: «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾». لفظ البخاري^(٢). وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح^(٣).

وفي صحيح مسلم^(٤) عن قتادة أن أنس بن مالك حدّثهم قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبِئْسَ بِعَمَلِكُمْ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿فَوَرَأَ عَظِيمًا﴾ مرّجعه من الحُدَيْبِيَّة وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدى بالحُدَيْبِيَّة، فقال: «لقد أنزلت عليّ آية هي أحب إليّ من الدنيا جميعاً».

(١) أسباب النزول للواحد ص ٤٠٣ .

(٢) صحيح البخاري (٤١٧٧) و(٤٨٣٣). وليس في صحيح مسلم ولم يعزه المزي إليه ٦/٨ . وهو في مسند أحمد (٢٠٩). وقوله: نزلت رسول الله، أي: ألححت عليه في المسألة إلحاحاً. ولم ينسب أن فعل كذا: أي لم يلبث. النهاية (نزر) (نشب).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٦٢).

(٤) برقم (١٧٨٦)، وأخرجه أحمد (١٣٢٤٦).

وقال عطاء عن ابن عباس: إن اليهود شتموا النبي ﷺ والمسلمين لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا آدْرَى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] وقالوا: كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يفعل به! فاشتد ذلك على النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(١).

ونحوه قال مقاتل بن سليمان: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا آدْرَى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ فرح المشركون والمنافقون، وقالوا: كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يفعل به ولا بأصحابه فنزلت بعد ما رجع من الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أي: قضينا لك قضاء. فنسخت هذه الآية تلك. فقال النبي ﷺ: «لقد أنزلت عليّ سورة ما يسرني بها حُمْرُ النَّعَمِ»^(٢).

وقال المسعودي: بلغني أنه من قرأ سورة الفتح في أول ليلة من رمضان في صلاة التطوع حفظه الله ذلك العام^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾^(٤)

اختلف في هذا الفتح ما هو؟ ففي البخاري^(٤): حدّثني محمد بن بشار قال: حدّثنا عُندَرُ قال: حدّثنا شعبة قال: سمعت قتادة عن أنس: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: الحُدَيْبِيَّة.

(١) أسباب النزول للواحد ص ٤٠٣-٤٠٤، وسلف نحوه في موضعه من الأحقاف.

(٢) ذكره بنحوه أبو الليث في تفسيره ٢٤٩/٣، وليس فيه ذكر السُخ، ولا قول النبي ﷺ «لقد نزلت عليّ سورة...».

(٣) ذكر السيوطي في الدر المشثور ٧٠/٦ وعزاه للسلفي في الطيوريات، ولم يذكر المسعودي إسناده إلى من بلغه، فالخبر ضعيف. ثم إن المسعودي - وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود - صدوق اختلط قبل موته؛ كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٤) برقم (٤٨٣٤).

وقال جابر: ما كنا نعدُّ فتح مَكَّةَ إلا يومَ الحُدَيْبِيَّةِ^(١).

وقال البراء^(٢): تعدُّون أنتم الفتحَ فتحَ مَكَّةَ، وقد كان فتح مَكَّةَ فتحاً، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرُّضْوَانِ يومَ الحُدَيْبِيَّةِ، كنا نعدُّ مع النبي ﷺ أربع عشرة مئة، والحديبية بئر^(٣).

وقال الضحاك: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ بغير قتال. وكان الصلح من الفتح^(٤).

وقال مجاهد^(٥): هو مَنْحَرُهُ بالحديبية وحلقه رأسه.

وكان^(٦) فتحُ الحديبية آيةً عظيمة، نُزِحَ ماؤها، فمَجَّ فيها، فدرَّت بالماء حتى شرب جميعُ من كان معه^(٧).

وقال موسى بن عقبة: قال رجلٌ عند مُصْرَفِهِم من الحديبية: ما هذا بفتح؛ لقد صدُّونا عن البيت. فقال النبي ﷺ: «بل هو أعظمُ الفتوح، قد رضيَ المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح، ويسألوكم القضيَّةَ، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا»^(٨).

وقال الشعبيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ قال: هو فتحُ الحديبية، لقد

(١) أخرجه الطبري ٢٤٢/٢١.

(٢) في النسخ: الفراء. وهو خطأ.

(٣) قطعة من حديث البراء أخرجه البخاري (٤١٥٠)، والطبري ٢٤٣/٢١، وأخرج بعضه أحمد (١٨٥٦٣). وفي الطبري: خمس عشرة مئة. بدل: أربع عشرة مئة. قال الحافظ ابن حجر ٤٤٠/٧: والجمع بين هذا الخلاف أنهم كانوا أكثر من ألف وأربع مئة، فمن قال: ألفاً وخمس مئة جبر الكسر، ومن قال ألفاً وأربع مئة ألغاه.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ١٨٨/٤.

(٥) تفسير مجاهد ٦٠١/٢، وأخرجه الطبري ٢٣٩/٢١.

(٦) في النسخ عدا (د) و(ز): وقال: كان. بدل: وكان.

(٧) معاني القرآن للزجاج ١٩/٥، والكشاف ٥٤٠/٣. وهذا المعنى هو بعض حديث البراء عند البخاري (٤١٥٠) السالف ذكره.

(٨) ذكره الزمخشري في الكشاف ٥٤١/٣. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١٦٠/٤.

أصاب بها ما لم يُصَب في غزوة، غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وبُويع بيعة الرضوان، وأُطعموا نخلَ خيبر، وبلغَ الهدْيُ مَجَلَّه، وظهرت الرومُ على فارس، وفرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس^(١).

وقال الزهري: لقد كان الحديدية أعظمَ الفتح؛ وذلك أن النبي ﷺ جاء إليها في ألف وأربع مئة، فلما وقع الصلح؛ مشى الناس بعضهم في بعض وعلموا وسمعوا عن الله، فما أراد أحدُ الإسلام إلا تمكّن منه؛ فما مضت تلك الستتان إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف^(٢). وقال مجاهدٌ أيضاً والعوفي^(٣): هو فتح خيبر. والأوّل أكثر؛ وخيبرٌ إنّما كانت وعداً وُعدوه؛ على ما يأتي بيانه في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمَخَلْفُونَ إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ﴾ [الفتح: ١٥]، وقوله: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ [الفتح: ٢٠].

وقال مُجمّع بن جارية - وكان أحدَ القراء الذين قرؤوا القرآن -: شهدنا الحديدية مع النبي ﷺ، فلَمَّا انصرفنا عنها، إذا الناس يهزّون الأباغر، فقال بعضُ الناس لبعض: ما بالُ الناس؟ قالوا: أوحى الله إلى النبي ﷺ. قال: فخرجنا نُوجِف فوجدنا نبيَّ الله ﷺ عند كُراع الغميم، فلَمَّا اجتمع الناسُ قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾. فقال عمرُ بن الخطاب: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده إنّه لفتح». فقُسمت خيبرُ على أهل الحديدية، لم يُدخَل فيها^(٤) أحدٌ إلا من شهد الحديدية^(٥).

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٢٥٥، والطبري ٢١/٢٤٤، والبيهقي في الدلائل ٤/١٦٢-١٦٣.

(٢) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/١٧.

(٣) ذكر قولهما ابن الجوزي في زاد المسير ٧/٤٢٣.

(٤) لفظه: فيها. ليست في (م).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٤٧٠)، وأبو داود (٢٧٣٦). قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦/٦٨: وفي إسناده ضعف. اهـ. قوله: يهزّون الأباغر: أي يحثونها ويدفعونها، والوهز: شدّة الدفع والوطء. النهاية (وهز)، وقوله: نوجف: الإيجاف سرعة السير، النهاية (وجف). وكُراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة. معجم البلدان ٤/٤٤٣.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: «فَتْحاً» يدلُّ على أنَّ مَكَّةَ فُتِحَتْ عَنوةً؛ لأنَّ اسم الفتح لا يقع مطلقاً إلاَّ على ما فُتِحَ عَنوةً. هذا هو حقيقة الاسم. وقد يقال: فُتِحَ البلدُ ضُلْحاً، فلا يفهمُ الصُّلْحُ إلاَّ بأن يُقرن بالفتح، فصار الفتحُ في الصلح مجازاً^(١). والأخبارُ دالةٌ على أنَّها فُتِحَتْ عَنوةً؛ وقد مضى القولُ فيها، ويأتي^(٢).

قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

قال ابن الأنباري: «فَتْحاً مُبِيناً» غير تام؛ لأنَّ قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ﴾ متعلقٌ بالفتح. كأنَّه قال: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لكي يجمع الله لك مع الفتح المغفرة؛ فيجمع الله لك به ما تَقَرُّ به عينك في الدنيا والآخرة. وقال أبو حاتم السَّجِسْتَانِي: هي لام القسم. وهذا خطأ؛ لأنَّ لامَ القسم لا تُكسر ولا يُنصب بها؛ ولو جاز هذا لجاز: ليقوم زيد؛ بتأويل ليقومن زيد^(٣).

الرَّمْخُسَرِي^(٤): فَإِنْ قُلْتَ: كيف يجعل فتح مَكَّةَ عِلَّةً للمغفرة؟ قلت: لم يُجعل عِلَّةً للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدَّد من الأمور الأربعة؛ وهي: المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصرُ العزيز. كأنَّه قيل^(٥): يَسِّرْنَا لَكَ فَتْحَ مَكَّةَ، ونصرتناك على عدوك ليُجمع لك عِزُّ الدَّارَيْنِ، وأغراض^(٦) العاجل والآجل. ويجوز أن يكونَ فَتْحُ مَكَّةَ من حيثُ إِنَّهُ جِهَادٌ للعدوِّ سبباً للغفران والثواب.

وفي الترمذي عن أنس قال: أنزلت على النبي ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ

(١) ينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٩٣.

(٢) سلف ٣٥٢/١٤، وسيأتي ص ٢٨٢ من هذا الجزء.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/٩٠٠ و٧٠٠.

(٤) في الكشاف ٣/٥١٤.

(٥) في (م): قال.

(٦) في النسخ: أعراض. والمثبت من الكشاف.

وَمَا تَأَخَّرَ ﴿١﴾ مَرَجَعَهُ مِنَ الْحَدِيثِ؛ فقال النبي ﷺ: «لقد أنزلت عليّ آيةً أحبُّ إليّ ممَّا على وجه الأرض». ثم قرأها النبي ﷺ عليهم؛ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، لقد بيّن الله لك ماذا يُفعل بك؛ فماذا يُفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوَرَأً عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]. قال: حديثٌ حسنٌ صحيح، وفيه عن مُجمّع بن جارية^(١).

واختلف أهلُ التأويل في معنى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فقيل: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ قبل الرسالة. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بعدها؛ قاله مجاهد^(٢). ونحوه قال الطبريُّ وسفيانُ الثوري.

قال الطبريُّ: هو راجعٌ إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى قوله: ﴿تَوَابًا﴾ [النصر: ١-٣]. ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ قبل الرسالة ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إلى وقت نزول هذه الآية^(٣).

وقال سفيانُ الثوري: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾: ما عملته في الجاهلية من قبل أن يوحى إليك. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: كلُّ شيء لم تعمله؛ وقاله الواحدي^(٤).

وقد مضى الكلام في جريان الصغائر على الأنبياء في سورة البقرة^(٥)؛ فهذا قول. وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: قبل الفتح. «وَمَا تَأَخَّرَ» بعد الفتح. وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: قبل نزول

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٣)، وهو عند أحمد (١٢٢٢٦)، وأخرجه البخاري (٤١٧٢) من طريق شعبة عن قتادة. قال شعبة: فقدمت الكوفة، فحدثت بهذا كله عن قتادة، ثم رجعت فذكرت له فقال: أما ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فَمَعْنَا لَكَ ﴿فَعَنْ أَنَسٍ، وَأَمَّا هُنَيْئًا مَرِيئًا، فَعَنْ عِكْرَمَةَ. ١هـ. وأخرج مسلم (١٧٨٦) الشطر الأول منه. وحديث مُجمّع بن جارية سلف قريباً.

(٢) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/١٩٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/١٨٩، وعنه نقل المصنف كلام الطبري. إلا أن قول الطبري كما في تفسيره ٢١/٢٣٦: ... ما تقدم من ذنبك قبل فتحه لك ما فتح، وما تأخر بعد فتحه لك ذلك.

(٤) في الوسيط ٤/١٣٤.

(٥) ٤٥٨/١-٤٦٠.

هذه الآية. «وَمَا تَأَخَّرَ» بعدها^(١).

وقال عطاء الخراساني: «مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ» يعني من ذنب أبوبك آدم وحواء. «وَمَا تَأَخَّرَ» من ذنوب أمتك^(٢).

وقيل: من ذنب أبيك إبراهيم. «وَمَا تَأَخَّرَ» من ذنوب النبيين.

وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: من ذنب يوم بدر. «وَمَا تَأَخَّرَ» من ذنب يوم حنين. وذلك أن الذنب المتقدم يوم بدر، أنه جعل يدعو ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض أبداً». وجعل يرددُ هذا القول دفعات، فأوحى الله إليه: من أين تعلم أنني لو أهلكت هذه العصابة لا أعبد أبداً؛ فكان هذا الذنب المتقدم. وأمّا الذنب المتأخر فيوم حنين، لما انهزم الناس قال لعنه العباس ولا بن عمه أبي سفيان: «ناولاني كفاً من حصباء الوادي» فناولاه، فأخذه بيده ورمى به في وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه. حم. لا ينصرون». فانهزم القوم عن آخرهم، فلم يبق أحدٌ إلا امتلأت عيناه رملاً وحصباء. ثم نادى في أصحابه فرجعوا، فقال لهم عند رجوعهم: «لو لم أرمهم لم ينهزموا». فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] فكان هذا هو الذنب المتأخر.

وقال أبو علي الروذباري: يقول: لو كان لك ذنبٌ قديم أو حديثٌ لغفرناه لك^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لَنَا ذُرُوبَنَا﴾ قال ابن عباس: في الجنة^(٤). وقيل: بالنبوة والحكمة^(٥). وقيل: بفتح مكّة والطائف وخيبر. وقيل: بخضوع من استكبر، وطاعة من تجبر^(٦). ﴿وَهَدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: يُثَبِّتَكَ عَلَى الْهُدَى إِلَى أَنْ يَقْبِضَكَ إِلَيْهِ.

(١) النكت والعيون ٣١٠/٥.

(٢) ذكره البغوي ١٨٩/٤، وابن عطية في المحرر الوجيز ١٢٦/٥.

(٣) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٥٣/٢٦ دون نسبة.

(٤) الوسيط ١٣٤/٤.

(٥) تفسير البغوي ١٨٩/٤.

(٦) النكت والعيون ٣١٠/٥.

﴿وَتَضَرَّكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: غالباً منيعاً لا يتبعه ذل.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ
وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٤﴾

«السَّكِينَةَ»: السكون والطمأنينة. قال ابن عباس: كلُّ سَكِينَةٍ في القرآن هي الطمأنينة إلا التي في «البقرة»^(١). وتقدّم معنى زيادة الإيمان في «آل عمران»^(٢).

وقال ابنُ عباس: بُعث النبي ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدّقه فيها زادهم الصلّاة، فلما صدّقه زادهم الزكاة، فلما صدّقه زادهم الصيام، فلما صدّقه زادهم الحج، ثم أكمل لهم دينهم^(٣)؛ فذلك قوله: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي: تصديقاً بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان. وقال الربيعُ بن أنس: خَشِيَّةٌ مع خشيتهم^(٤). وقال الضحّاك: يقيناً مع يقينهم^(٥).

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يريدُ الملائكةَ والجنَّ والشياطينَ والإنس^(٦) ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوال خلقه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يريدُه.

قوله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَيُكْفَرُ عَنْهُمْ سَرِيَّاتُهُمْ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾

أي: أنزل السكينة ليزدادوا إيماناً. ثم تلك الزيادة سبب^(٧) إدخالهم الجنة. وقيل:

(١) تفسير البغوي ٤/١٨٩ .

(٢) ٤٢٣/٥ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/٢٤٦ ، والطبراني في الكبير (١٣٠٢٨).

(٤) قاله الربيع في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ ءَايَتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]. كما في تفسير الطبري ١١/٢٩-٣٠ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/١٨٩ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/١٣٥ .

(٧) في (د) و(ز) و(ق): لسبب، وفي (م): بسبب. والمثبت من (خ) و(ظ) و(ف). وينظر تفسير الرازي

اللام في «لِيُدْخِلَ» يتعلق بما يتعلق به اللام في قوله: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ»^(١).

﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الوعد من دخول مكة وغفران الذنوب. ﴿عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: نجاة من كلِّ غمٍّ، وظفرًا بكلِّ مطلوب.

وقيل: لما قرأ النبي ﷺ على أصحابه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، فماذا لنا؟ فنزل: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾. ولما قرأ ﴿وَبِئْتَهُ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ قالوا: هنيئاً لك؛ فنزلت: ﴿وَأَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] فلما قرأ: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ نزل في حق الأمة: ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠]. ولما قال: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ نزل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٣] ذكره الفشيري.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُتَّفِقِينَ وَالْمُتَّفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَ السُّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَعَظَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ① ولله جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ②

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُتَّفِقِينَ وَالْمُتَّفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أي: بإيصال الهموم إليهم بسبب علو كلمة المسلمين، وبأن يُسلط النبي عليه الصلاة والسلام قتلاً وأسراً واسترقاقاً.

﴿الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَ السُّوءَ﴾ يعني ظنهم أن النبي ﷺ لا يرجع إلى المدينة، ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وأن المشركين يستأصلونهم. كما قال: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]. وقال الخليل وسيبويه: «السوء» هنا الفساد^(٢).

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/٢٤٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/٢٠.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ في الدنيا بالقتل والسَّبي والأسر، وفي الآخرة بجهنم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دائرةُ السُّوءِ﴾ بالضم. وفتح الباقون^(١). قال الجوهري^(٢): ساءه يسوءه سَوْءًا؛ بالفتح، ومَسَاءةٌ ومَسَائِيَةٌ؛ نقيضُ سرِّه، والاسم: السُّوءُ؛ بالضم. وقُرئ ﴿عليهم دائرةُ السُّوءِ﴾ يعني: الهزيمة والشر. ومن فَتَحَ فهو من المساءة.

﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمَ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾. تقدّم في غير موضع جميعه، والحمد لله.

وقيل: لما جرى صلح الحديبية قال ابن أبي: أَيْظُنُّ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ إِذَا صَالِحَ أَهْلَ مَكَّةَ أَوْ فَتَحَهَا لَا يَبْقَى لَهُ عَدُوٌّ، فَأَيْنَ فَارِسُ وَالرُّومُ؟ فَبَيَّنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ جُنُودَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ فَارِسٍ وَالرُّومِ.

وقيل: يدخل فيه جميع المخلوقات. وقال ابن عباس: ولله جنود السماوات: الملائكة، وجنود الأرض: المؤمنون. وأعاد لأن الذي سبق عقيب ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائر المشركين. والمراد في الموضوعين التخويف والتهديد. فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يُعجزه ذلك، ولكن يؤخّرهم إلى أجلٍ مُسَمًّى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا﴾ قال قتادة: على أمتك بالبلاغ. وقيل: شاهداً عليهم بأعمالهم من طاعةٍ أو معصية. وقيل: مُبَيِّنًا لهم ما أرسلناك به إليهم^(٣). وقيل:

(١) السبعة ص ٦٠٣، والتيسير ص ١١٩.

(٢) في الصحاح (سوا).

(٣) النكت والعيون ٥/٣١٢.

شاهداً عليهم يوم القيامة. فهو شاهدٌ أفعالهم اليوم، والشهيدُ عليهم يوم القيامة. وقد مضى في «النساء» عن سعيد بن المسيَّب^(١) هذا المعنى مبيَّناً.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعه بالجنة. ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لمن عصى؛ قاله قتادة وغيره^(٢). وقد مضى في «البقرة» اشتقاق البشارة والنذارة ومعناهما^(٣). وانتصب «شاهداً ومُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» على الحال المقدَّرة. حكى سيبويه^(٤): مررتُ برجلٍ معه صقرٌ صائداً به غداً. فالمعنى: إنا أرسلناك مقدَّرين بشهادتك يومَ القيامة. وعلى هذا تقول: رأيتُ عمراً قائماً غداً.

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ ابنُ كثير وابنُ مُحَيِّصن وأبو عمرو: «لِيُؤْمِنُوا» بالياء، وكذلك «وَيُعَزِّرُوهُ وَيُوقِّرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ» كلُّه بالياء على الخبر. واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده؛ فأما قبله فقوله: ﴿لِيَدْخُلُوا﴾ وأما بعده فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ الباكون بالتاء على الخطاب^(٥)، واختاره أبو حاتم.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تُعَظِّمُوهُ وتُفَخِّمُوهُ؛ قاله الحسن والكلبي^(٦). والتعزير: التعظيم والتوقير. وقال قتادة: تنصروه وتمنعوا منه^(٧). ومنه التعزير في الحدِّ؛ لأنَّه مانع. قال القَطَّامي^(٨):

أَلَا بَكَرَتْ مَيِّ بَغِيرَ سَفَاهَةٍ تَعَاتِبُ وَالْمَوْدُودَ يَنْفَعُهُ الْعَزْرُ

(١) في النسخ عدا (خ) و(ظ): سعيد بن جبير - وسلف هذا المعنى عن سعيد بن المسيَّب ٦/٣٢٦.

(٢) النكت والعيون ٥/٣١٣، وأخرج قول قتادة الطبري ٢١/٢٥٠.

(٣) ١/٢٨١، ٣٥٨.

(٤) في الكتاب ٢/٤٩.

(٥) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص ٦٠٣، والتيسير ص ٢٠١.

(٦) النكت والعيون ٥/٣١٣.

(٧) أخرجه الطبري ٢١/٢٥١.

(٨) في ديوانه ص ١٢٤. وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/٣١٣، والكلام فيه بنحوه.

وقال ابن عباس وعكرمة: تقاتلون معه بالسيف^(١). وقال بعض أهل اللغة: تطيعوه. ﴿وَتُوقَرُوهُ﴾ أي: تسودّوه؛ قاله السدي^(٢). وقيل: تُعظّموه. والتوقير: التعظيم والترزين أيضاً^(٣). والهاء فيهما للنبي ﷺ. وهنا وقف تام، ثم ابتدئ: «وَتُسَبِّحُوهُ». أي: تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: عشيّاً.

وقيل: الضمائر كلها لله تعالى؛ فعلى هذا يكون تأويل «تُعَزَّرُوهُ وَتُوقَرُوهُ» أي: تُثبتوا له صحة الربوبية وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك^(٤). واختار هذا القول القشيري. والأوّل قول الضحّاك، وعليه يكون بعض الكلام راجعاً إلى الله سبحانه وتعالى، وهو: «وَتُسَبِّحُوهُ» من غير خلاف، وبعضه راجعاً إلى رسوله ﷺ وهو «وَتُعَزَّرُوهُ وَتُوقَرُوهُ» أي: تدعوه بالرسالة والنبوة لا بالاسم والكنية.

وفي «تُسَبِّحُوهُ» وجهان: أحدهما: تسيّحه بالتنزيه له سبحانه من كل قبيح. والثاني: هو فعل الصلاة التي فيها التسييح. «بُكْرَةً وَأَصِيلًا» أي: غُدوةً وعشيّاً^(٥). وقد مضى القول فيه^(٦). وقال الشاعر^(٧):

لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْبَيْتُ أَكْرَمُ أَهْلُهُ وَأَجْلَسُ فِي أَفْيَائِهِ بِالْأَصَائِلِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحديبية يا محمد. ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾؛ بين

(١) قول ابن عباس من طريق مبشر بن عبيد عن الحجاج بن أرطاة عن عكرمة عنه أخرجه الحاكم في مستدركه ٤٦٠/٢ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: قال أحمد: مبشر بن عبيد كان يضع الحديث. وقول عكرمة أخرجه الطبري ٢٥٢/٢١.

(٢) النكت والعيون ٣١٣/٥.

(٣) الصحاح (وقر). وسلف قوله: تعظّموه عن الحسن والكلبي.

(٤) النكت والعيون ٣١٣/٥.

(٥) النكت والعيون ٣١٣-٣١٤.

(٦) ١٦٧/١٧ - ١٦٨.

(٧) هو أبو ذؤيب. والبيت في ديوان الهذليين ١/١٤١. وسلف ٩/٤٣٥.

أن يعيبتهم لنبيّه ﷺ إنما هي ببيعة الله؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وهذه المبايعة هي ببيعة الرضوان؛ على ما يأتي بيانها في هذه السورة إن شاء الله تعالى.

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل المعنى^(١): يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويده في المنة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة^(٢). وقال الكلبي: معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة^(٣). وقال ابن كيسان: قوّة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم^(٤).

﴿فَمَنْ نَكَتْ﴾ بعد البيعة. ﴿فَأَتَمَّا يَنْكَتُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: يرجع ضرر النكث عليه؛ لأنه حرم نفسه الثواب، وألزمها العقاب.

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ قيل: في البيعة. وقيل: في إيمانه. ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني في الجنة.

وقرأ حفص والزهرري: «عليه الله» بضم الهاء. وجرّها الباقون. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر: «فَسَيُؤْتِيهِ» بالنون. واختاره الفراء وأبو معاذ. وقرأ الباقون بالياء^(٥). وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لقرب اسم الله منه.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال مجاهد وابن عباس: يعني

(١) لفظة: المعنى. ليست في (م).

(٢) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٢٢/٥.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ١٩٠/٤.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ١٣٦/٤.

(٥) السبعة ص ٦٠٣، والتيسير ص ١٤٤، ٢٠١.

أعراب غفار ومُزَيِّنَة وجُهينة وأسلم وأشجع والدليل؛ وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة؛ تخلّفوا عن رسول الله ﷺ حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح، بعد أن كان استنفرهم ليخرجوا معه حذراً من قريش، وأحرم بعمرة وساق معه الهدى؛ ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، فتناقلوا عنه، واعتلوا بالشغل؛ فنزلت^(١). وإنما قال: «المُخَلَّفُونَ»؛ لأن الله خلفهم عن صحبة نبيه. والمخلف المتروك. وقد مضى في «براءة»^(٢).

﴿سَعَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أي: ليس لنا من يقوم بهما. ﴿فَأَسْتَغْفِرُ لَنَا﴾ جاؤوا يطلبون الاستغفار واعتقادهم بخلاف ظاهرهم؛ ففضّحهم الله تعالى بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِاللَّيْنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وهذا هو النفاق المحض.

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي: «ضراً» بضم الضاد هنا فقط، أي: أمراً يضرّكم. وقال ابن عباس: الهزيمة. الباقيون بالفتح^(٣)؛ وهو مصدر ضررته ضراً. وبالضم اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال^(٤). والمصدر يؤدّي عن المرة وأكثر. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قالوا: لأنه قابله بالنع، وهو ضدُّ الضر^(٥). وقيل: هما لغتان بمعنى؛ كالفقر والفقر، والضعف والضعف^(٦). ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: نصراً وغنيمَةً. وهذا ردُّ عليهم حين ظنوا أنّ التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضرّ ويعجل لهم النفع^(٧).

(١) تفسير البغوي ٤/١٩١.

(٢) ٣١٦/١٠.

(٣) السبعة ص ٦٠٤، والتيسير ص ٢٠١.

(٤) ينظر الصحاح (ضرر).

(٥) ذكر قول أبي عبيد النحاس في إعراب القرآن ٤/١٩٩.

(٦) حجة القراءات لابن زنجلة ص ٦٧٢، والحجة للفارسي ٦/٢٠٢.

(٧) الوسيط للواحد ٤/١٣٧.

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ آلِهِمَّ أَبَدًا وَرَبِّتَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا أَسْوَأَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ آلِهِمَّ أَبَدًا﴾ وذلك أنهم قالوا: إن محمداً وأصحابه أكله رأس لا يرجعون^(١). ﴿وَرَبِّتَ ذَلِكَ﴾ أي: النفاق. ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وهذا التزيين من الشيطان، أو يخلق الله ذلك في قلوبهم. ﴿وَوَظَّيْنْتُمْ ظَنًّا أَسْوَأَ﴾ أن الله لا ينصر رسوله. ﴿وَكَنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي: هلكي؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: فاسدين لا يصلحون لشيء من الخير^(٢). قال الجوهري^(٣): البور: الرجلُ الفاسدُ الهالك الذي لا خير فيه. قال عبد الله بن الزبير السهمي^(٤):

يا رسول المليك إن لسانِي رَاتِقٌ مَا فَتَّقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
وامرأة بُورٌ أيضاً؛ حكاها أبو عبيد^(٥). وقوم بُورٌ هلكي. قال تعالى: ﴿وَكَنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ وهو جمع بائر؛ مثل: حائل وحول. وقد بار فلان، أي: هلك. وأباره الله، أي: أهلكه.

وقيل: «بُوراً»: أشراراً؛ قاله ابن بحر^(٦). وقال حسان بن ثابت:

لا يَنْفَعُ الطُّوْلُ مِنْ نُوكِ القُلُوبِ وَقَدْ يَهْدِي الإِلهَ سَبِيلَ المَعْشَرِ البُورِ^(٧)
أي: الهالك.

(١) تفسير البغوي ١٩١/٤. وقولهم: هم أكلة رأس، أي: هم قليل يشبههم رأس واحد. الصحاح (أكل).

(٢) النكت والعيون ٣١٤/٥.

(٣) في الصحاح (بور).

(٤) ديوانه ص ٣٦.

(٥) في الصحاح: أبو عبيدة.

(٦) النكت والعيون ٣١٤/٥.

(٧) ديوان حسان ص ١٢٣. وفيه: الرجال. بدل: القلوب. ونقله المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٤١٣/٥، ووقع في الديوان، والخزانة ٧٢/٤: ولا يهدي. بدل: وقد يهدي. وقوله: النوك، بضم النون، أي: الحماقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

وعيدٌ لهم، وبيانٌ أنهم كفروا بالتفارق.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

أي: هو غنيٌّ عن عباده، وإنما ابتلاهم بالتكليف ليُثيبَ من آمن، ويعاقبَ من كفر

وعصى.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِ لِنَأْخُذُهَا ذُرُونًا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ فَلَئِنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَم قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِ لِنَأْخُذُهَا﴾ يعني مغائِمَ خيبر؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ وَعَدَّ أَهْلَ الْحَدِيثِ فَتَحَ خَيْبَرَ، وَأَنَّهَا لَهُمْ خَاصَّةٌ مِنْ غَابِ مِنْهُمْ وَمَنْ حَضَرَ. وَلَمْ يَغِبْ مِنْهُمْ عَنْهَا غَيْرُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَسَمَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَسَمَهُمْ مِنْ حَضَرَ (١).

قال ابن إسحاق: وكان المتولِّي للقسمة بخيبر جَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ الْأَنْصَارِيُّ مِنْ بَنِي سلمة (٢)، وزيد بن ثابت من بني النَّجَّارِ؛ كانا حَاسِبَيْنِ قَاسِمَيْنِ (٣).

﴿ذُرُونًا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي: دعونا. تقول: ذَرَه، أي: دعه. وهو يَذَرُه، أي: يَدَعُه. وأصله: وَذَرَه يَذَرُه، مثالُ: وَسِعَه يَسَعُه. وقد أُمِيتَ مصدرُه (٤)، لا يقال: وَذَرَه ولا

(١) سيرة ابن هشام ٣٤٩/٢.

(٢) جبار بن صخر ﷺ ممن شهد بدرًا، وكان ابن اثنين وثلاثين سنة، ثم شهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، وكان أحد السبعين ليلة العقبة، توفي في المدينة سنة ثلاثين. الاستيعاب (بهاشم الإصابة) ١٢٥/٢.

(٣) الدرر ص ٢٣٧، ووقع في سيرة ابن هشام ٣٥٧/٢: يزيد بن ثابت.

(٤) في النسخ: صدره. والمثبت من الصحاح (وذر) والكلام منه. قال الزبيدي في تاج العروس (وذر): أماتوا مصدره وماضيّه.

وَإِذْ، وَلَكِنْ تَرَكَهُ وَهُوَ تَارِكٌ .

قال مجاهد: تخلفوا عن الخروج إلى مكة، فلما خرج النبي ﷺ، وأخذ قوماً، ووجه بهم، قالوا: ذرونا نتبعكم فنقاتل معكم^(١).

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي: يغيروا. قال ابن زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَاسْتَدْرِكُوا كَلِمَةَ اللَّهِ﴾. وأنكر هذا القول الطبري^(٢) وغيره؛ بسبب أن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة. وقيل: المعنى يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد لأهل الحديبية، وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عوضاً عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح؛ قاله مجاهد وقتادة، واختاره الطبري^(٣)، وعليه عامة أهل التأويل^(٤).

وقرأ حمزة والكسائي: «كَلِمَ» بإسقاط الألف وكسر اللام؛ جمع كلمة؛ نحو سلمة وسليم. الباقون: «كَلَامَ» على المصدر^(٥). واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

والكلام: ما استقل بنفسه من الجمل. قال الجوهري: الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير. والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات؛ لأنه جمع كلمة؛ مثل نَبِقة ونَبِق. ولهذا قال سيبويه^(٦): هذا باب علم ما الكلم من العربية، ولم يقل: ما الكلام؛ لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء: الاسم والفعل والحرف، فجاء بما لا يكون إلا جمعاً، وترك ما يمكن أن يقع على الواحد والجماعة. وتميم تقول: هي كلمة، بكسر

(١) معاني القرآن للنحاس ٥٠١/٦، وأخرجه الطبري ٢٦٢/٢١.

(٢) في تفسيره ٢٦٣/٢١.

(٣) في تفسيره ٢٦١/٢١-٢٦٢، وخرج قولي مجاهد وقتادة فيه.

(٤) ينظر تفسير البغوي ١٩٢/٤.

(٥) السبعة ص ٦٠٤، والتيسير ص ٢٠١.

(٦) في الكتاب ١٢/١.

الكاف^(١)، وقد مضى في «براءة» القول فيها^(٢).

﴿كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: مِنْ قَبْلِ رَجوعنا من الحديبية: إِنَّ غَنيمَةً خَيْرَ لِمَنْ شَهِدَ الحديبية خاصة. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أَنْ نُصِيبَ معكم من الغنائم^(٣).
وقيل: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ خَرَجْتُمْ لَمْ أَمْنَعَكُمْ إِلَّا أَنَّهُ لَا سَهْمَ لَكُمْ». فقالوا: هذا حسد. فقال المسلمون: قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى:
﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: لا يعلمون إِلَّا أمر الدنيا. وقيل: لا يفقهون من أمر الدين إِلَّا قليلاً؛ وهو ترك القتال.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ أي: قل لهؤلاء الذين تخلّفوا عن الحديبية: ﴿سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن أبي ليلى وعطاء الخراساني: هم فارس. وقال كعب والحسن وعبد الرحمن بن أبي ليلى: الروم. وعن الحسن أيضاً: فارس والروم. وقال ابن جبّير: هوازن وثقيف. وقال عكرمة: هوازن. وقال قتادة: هوازن وغطفان يوم حنين. وقال الزُّهري ومقاتل: بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مُسَيْلِمة. وقال رافع بن خديج: والله لقد كنّا نقرأ هذه الآية فيما مضى: ﴿سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، فلا نعلم من هم؛ حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة؛ فعلمنا أنّهم هم. وقال أبو هريرة: لم

(١) الصحاح (كلم).

(٢) ٢٢٠-٢١٩/١٠.

(٣) الوسيط للواحد ١٣٨/٤، وتفسير البغوي ١٩٢/٤.

تأت هذه الآية بعدُ. وظاهر الآية يرده^(١).

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على صحة إمامة أبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما؛ لأنَّ أبا بكرٍ دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم. وأمَّا قولُ عكرمة وقتادة: إنَّ ذلك في هوازن وغطفان يوم حنين. فلا؛ لأنَّه يمتنع أن يكون الداعي لهم الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنَّه قال: ﴿لَنْ نَخْرُجَ مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ نَقْتُلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾. فدلَّ على أن المراد بالداعي غيرُ النبي ﷺ. ومعلومٌ أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبي ﷺ إلا أبو بكرٍ وعمر رضي الله عنهما^(٢). الزمخشري^(٣): فإن صحَّ ذلك عن قتادة؛ فالمعنى: لن تخرجوا معي أبداً ما دمت على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدين، أو على قول مجاهد؛ كان الموعدُ أنهم لا يتبعون رسولَ الله ﷺ إلا متطوعين لا نصيبَ لهم في المنعم. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿نَقْتُلُوهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ هذا حكمٌ من لا تؤخذ منهم الجزية، وهو معطوفٌ على «تقاتلونهم». أي: يكون أحدُ الأمرين: إمَّا المقاتلة وإمَّا الإسلام، لا ثالث لهما. وفي حرف أبي: «أَوْ يُسْلِمُوا»^(٤) بمعنى: حتى يُسْلِمُوا، كما تقول: كلُّ أو تشيع، أي: حتى تشيع. قال:

فقلتُ له لا تبك عَيْنُكَ إِنَّمَا نَحَاوِلُ مُلْكَاً أَوْ نَمُوتُ فَتُعْذِرَا^(٥)

وقال الزجاج: قال: «أَوْ يُسْلِمُونَ»؛ لأنَّ المعنى: أو هم يُسْلِمُونَ من غير قتال^(٦). وهذا في قتال المشركين، لا في أهل الكتاب.

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٣١٥-٣١٦، وتفسير البغوي ٤/١٩٢، وزاد المسير ٧/٤٣١.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٩٣-٣٩٤.

(٣) في الكشف ٣/٥٤٥.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٤٣.

(٥) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص ٦٦، وسلف ٥/١٧٣.

(٦) كلام الزجاج بنحوه في البيان لابن الأنباري ٢/٣٧٧.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾: الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾: عام الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: وهو عذاب النار.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿٧﴾

قال ابن عباس: لما نزلت ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال أهل الزمان: كيف بنا يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾^(١) أي: لا إثم عليهم في التخلّف عن الجهاد لِعَمَاهُمْ وزمانتهم وضعفهم. وقد مضى في «براءة» وغيرها الكلام فيه مُبَيَّنًا^(٢).

والعَرَجُ: آفة تُعْرِضُ لِرَجُلٍ واحدة، وإذا كان ذلك مؤثراً؛ فخلل الرجلين أولى أن يؤثر.

وقال مقاتل: هم أهل الزمان الذين تخلّفوا عن الحديبية وقد عذرهم^(٣). أي: من شاء أن يسير منهم معكم إلى خيبر فليفعل.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمره. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قرأ نافع وابن عامر: «تُدْخِلْهُ» بالنون على التعظيم. الباقرن بالياء^(٤)، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدّم اسم الله أولاً. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٢٥٦/٣، ونسبه للكلبي.

(٢) ٣٣١/١٠، ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ١٣٩/٤.

(٤) السبعة ص ٦٠٤، والتيسير ص ٢٠١.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ هذه بيعة الرضوان، وكانت بالحديبية، وهذا خبر الحديبية على اختصار: وذلك أن النبي ﷺ أقام مُنصرَفَه من عَزْوَة بني المُصطَلِق في رمضان وشَوَّال، وخرج في ذي القعدة مُعتمِرًا، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة، فأبطأ عنه أكثرهم، وخرج النبي ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن أتبعه من العرب، وجميعهم نحو ألف وأربع مئة^(١) وقيل: ألف وخمس مئة^(٢). وقيل غير هذا، على ما يأتي. وساق معه الهدْي، فأحرم رسول الله ﷺ لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ لم يخرج لحرب، فلَمَّا بلغ خروجه قريشاً خرج جمعهم صَادِّين لرسول الله ﷺ عن المسجد الحرام ودخول مكة، وإنه إن قاتلهم قاتلوه دون ذلك، وقَدَّموا خالد بن الوليد في خيل إلى كِرَاعِ الغَمِيمِ^(٣). فورد الخبرُ بذلك على رسول الله ﷺ وهو بعُسْفَانَ^(٤) وكان المخبر له بشر بن سفيان الكعبي^(٥)، فسلك

(١) هو قول جابر ﷺ كما في مسند أحمد (١٤٨٢٣)، وصحيح البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦):

(٦٧)، وسيأتي بتمامه ص ٣١٧ من هذا الجزء، وسلف من قول البراء أيضاً ص ٢٩٦ من هذا الجزء.

(٢) هو قول جابر ﷺ أيضاً كما في مسند أحمد (١٤١٨١)، وسيأتي ص ٣١٧ من هذا الجزء.

(٣) كذا في سيرة ابن هشام ٣٠٩/٢، والدرر لابن عبد البر ص ٢٢٢ والكلام منه. وفي صحيح البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢) في حديث طويل عن المسور بن مخرمة ومروان... قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل...» قال ابن حجر في فتح الباري ٣٣٥/٥: وسياق الحديث ظاهر في أنه كان قريباً من الحديبية فهو غير كراع الغميم... وهو الذي بين مكة والمدينة، وأما الغميم هذا فقال ابن حبيب: هو قريب من مكان بين رابع والجحفة.

(٤) عُسْفَانَ: على مرحلتين من مكة على طريق المدينة. معجم البلدان ١٢٢/٤.

(٥) سيرة ابن هشام ٣٠٩/٢. ثم قال ابن هشام: ويقال: بُسْر. اهـ. والأخير هو الذي صححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٣٣٤/٥. وهو بُسْر بن سفيان بن عمرو بن عويمر الخزاعي. أسلم سنة ست من الهجرة. الاستيعاب (بهاشم الإصابة) ٣٠٩/١.

طريقاً يخرجُ به في ظهورهم، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة، وكان دليله فيه^(١) رجلٌ من أسلم، فلمَّا بلغ ذلك خيلَ قريشٍ التي مع خالد؛ جرت إلى قريشٍ تُعلمهم بذلك.

فلمَّا وصل رسولُ الله ﷺ إلى الحديبية؛ بركت ناقته ﷺ، فقال الناس: خلأت خلأت! فقال النبي ﷺ: «ما خلأت؛ وما هو لها بخُلُق، ولكن حبسها حابسُ الفيل عن مكة. لا تدعوني قريشُ اليومَ إلى حُطَّةٍ يسألوني فيها صلة رَحِمٍ إلَّا أعطيتهم إيَّها». ثم نزل ﷺ هناك؛ فقيل: يا رسول الله، ليس بهذا الوادي ماء! فأُخرج عليه الصلاة والسلام سهماً من كِنَانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قَلْبٍ من تلك القُلُب، فغرَّره في جوفه، فجاشَ بالماء الرِّواء حتى كفى جميعَ الجيش^(٢).

وقيل: إنَّ الذي نزل بالسَّهم في القليب ناجية بن جُنْدب بن عمير الأسلمي، وهو سائقُ بُذْن النبي ﷺ يومئذٍ. وقيل: نزل بالسَّهم في القليب البراءُ بن عازب.

ثمَّ جرت السُّفراء بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، وطال التراجع والتنازع إلى أن جاءه^(٣) سهيل بن عمرو العامري، فقاضاه على أن ينصرف عليه الصلاة والسلام عامه ذلك، فإذا كان من قابل، أتى مُعْتَمِراً، ودخل هو وأصحابه مكة بلا سلاح^(٤)، حاشا السيوف في قُرْبها، فيقيم بها ثلاثاً ويخرج، وعلى أن يكون بينه

(١) في (ز) و(ف) و(ق) و(م): فيهم. والمثبت من (خ) و(د) و(ظ) وهو الموافق للدرر ص ٢٢٢ والكلام منه.

(٢) خبر وقوف ناقته ﷺ، ونبع الماء من القليب عند أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم مطول.

وقوله خلأت: الخلاء للنوق كالإلحاح للجمال، والحران للدواب. النهاية (خلا). وماء رِواء. أي: كثير مرو. اللسان (روي).

(٣) في (م): جاء.

(٤) في (د) و(م): بغير سلاح، وفي (خ): بالسلاح، وفي (ز): بسلاح. والمثبت من (ظ) و(ف) و(ق). وهو الموافق للدرر والكلام منه.

وبينهم صلح عشرة أعوام، يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً، وعلى أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً من رجلٍ أو امرأة رُدَّ إلى الكفار، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً، لم يردُّوه إلى المسلمين؛ فعَظُم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام، وكان رسولُ الله ﷺ أعلم؛ لما^(١) علَّمه الله من أنه سيجعل للمسلمين فرجاً، فقال لأصحابه: «اصبروا؛ فإن الله يجعلُ هذا الصلح سبباً إلى ظهور دينه». فأَينس الناسُ إلى قوله هذا بعد نفايٍ منهم.

وأبى سهيلُ بن عمرو أن يُكْتَبَ في صدر صحيفة الصلح: من محمدٍ رسول الله، وقالوا له^(٢): لو صدَّقناك بذلك ما دفعناك عمّا تريد! فلا بدَّ أن تكتب: باسمك اللهم. فقال لعليّ - وكان يكتب صحيفة الصلح -: «امح يا عليّ، واكتب باسمك اللهم» فأبى عليّ أن يمحو بيده: «محمد رسول الله». فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضه عليّ» فأشار إليه فمحا رسولُ الله ﷺ بيده، وأمره أن يكتب: «من محمد بن عبد الله».

وأتى أبو جندل بن سهيل يومئذٍ بإثر كتاب الصلح، وهو يَرُسُفُ في قيوده، فردّه رسولُ الله ﷺ إلى أبيه؛ فعَظُم ذلك على المسلمين، فأخبرهم رسول الله ﷺ وأخبر أبا جندل أن الله سيجعلُ له فرجاً ومخرجاً^(٣).

وكان رسول الله ﷺ قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكّة رسولاً، فجاء خبرٌ إلى رسول الله ﷺ بأن أهل مكّة قتلوه، فدعا رسول الله ﷺ حينئذٍ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكّة؛ فرُوي أنه بايعهم على الموت. ورُوي أنه بايعهم على ألا يفرُّوا؛ وهي بيعة الرضوان تحت الشجرة، التي أخبر الله تعالى أنه رضي عن المبايعين لرسول الله ﷺ تحتها. وأخبر رسولُ الله ﷺ أنهم لا يدخلون النار. وضرب

(١) في (م) والدرر ص ٢٢٤ : بما.

(٢) في الدرر: وقال له.

(٣) الدرر ص ٢٢٤ ، وقصة أبي جندل خرجها أحمد في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم (١٨٩١٠)، وهي في صحيح البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢) دون قوله: «أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً».

رسولُ الله ﷺ يمينه على شماله لعثمان، وقال: «هذه عن عثمان»^(١)؛ فهو كمن شهدها. وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال: أوَّل من بايع رسولَ الله ﷺ يوم الحديبية أبو سنان^(٢) الأَسدي^(٣).

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر قال: كُنَّا يومَ الحديبية ألفاً وأربع مئة؛ فبايعناه وعمرُ أخذُ بيده تحتَ الشجرة وهي سَمْرَة، وقال: بايعناه على ألا نفرَّ، ولم نبايعه على الموت^(٤).

وعنه أنه سمع جابراً يُسأل: كم كانوا يومَ الحديبية؟ قال: كُنَّا أربعَ عشرة مئة؛ فبايعناه وعمرُ أخذُ بيده تحتَ الشجرة؛ وهي سَمْرَة؛ فبايعناه، غيرَ جدِّ بن قيس الأنصاري، اختبأ تحتَ بطنِ بعيه^(٥).

وعن سالم بن أبي الجعد قال: سألتُ جابراً بن عبد الله عن أصحابِ الشجرة، فقال: لو كُنَّا مئة ألفٍ لكفانا، كُنَّا ألفاً وخمسة مئة^(٦). وفي رواية: كُنَّا خمسَ عشرة مئة^(٧).

وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان أصحابُ الشجرة ألفاً وثلاث مئة، وكانت أسلمُ تُمنَّ المهاجرين^(٨).

(١) خبر مبايعة النبي ﷺ عن عثمان ؓ أخرجه البخاري (٣٦٩٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) في النسخ: أبو سفيان. والمثبت من المصادر.

(٣) الدرر ص ٢٢٢-٢٢٥ والكلام من أول قصة الحديبية منه. وخبر الشعبي أخرجه ابن أبي شيبة ٢٠٤/١٢.

(٤) صحيح مسلم (١٨٥٦): (٦٧)، وسلف طرفه ص ٣١٤ من هذا الجزء. والسمره: هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان. النهاية (سمر).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٢٥٩)، ومسلم (١٨٥٦): (٦٩).

(٦) أخرجه أحمد (١٤١٨١)، ومسلم (١٨٥٦): (٧٢). وقوله: لكفانا، يعني الماء الذي جعل يفور من بين أصابعه ﷺ عندما وضع يده الشريفة في الركوة، كما في رواية البخاري (٤١٥٢).

(٧) أخرجه البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم (١٨٥٦): (٧٣).

(٨) أخرجه البخاري (٤١٥٢)، ومسلم (١٨٥٧).

وعن يزيد بن أبي عبيد قال: قلت لسلمة: على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت^(١).

وعن البراء بن عازب قال: كتب عليّ ﷺ الصلح بين النبي ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية؛ فكتب: هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله ﷺ، فقالوا: لا تكتب رسول الله، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك. فقال النبي ﷺ لعليّ: «أمحه». فقال: ما أنا بالذي أمحاه؛ فمحاه النبي ﷺ بيده. وكان فيما اشترطوا: أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثاً، ولا يدخلها سلاح إلا جُلبان السلاح؛ القِرَاب وما فيه^(٢).

وعن أنس: أن قريشاً صالحوا النبي ﷺ؛ فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعليّ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو: أما بسم الله، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم! ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم. فقال: «اكتب من محمد رسول الله» قالوا: لو علمنا أنك رسوله لاتبعناك! ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال النبي ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». فاشترطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لم نردّه عليكم، ومن جاء^(٣) منا رددتموه علينا. فقالوا: يا رسول الله، أنكتب هذا! قال: «نعم، إنه من ذهب^(٤) منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً»^(٥).

وعن أبي وائل قال: قام سهل بن حنيف يوم صقّين فقال يا أيها الناس، اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا؛ وذلك في

(١) أخرجه أحمد (١٦٥٠٩)، والبخاري (٢٩٦٠)، ومسلم (١٨٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٦٧)، والبخاري (٢٦٩٨)، ومسلم (١٧٨٣): (٩٠). وقوله: القِرَاب وما فيه. هو

من كلام أبي إسحاق؛ راوي الحديث عن البراء. كما في صحيح مسلم.

(٣) في (م): جاءكم.

(٤) في النسخ الخطية: جاء، والمثبت من (م).

(٥) أخرجه أحمد (١٣٨٢٧)، ومسلم (١٧٨٤).

الصُّلْح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين. فجاء عمرُ بن الخطاب ؓ، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ألسنا على حقٍّ وهم على باطلٍ؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى» قال: ففيم نعطي الدنيَّة في ديننا، ونرجعُ ولمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «يا ابن الخطاب إنِّي رسولُ الله، ولن يُضَيِّعني الله أبداً» قال: فانطلق عمر، فلم يصبر مُتَعَيِّطاً، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حقٍّ وهم على باطلٍ؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنيَّة في ديننا، ونرجع ولمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب، إنَّه رسولُ الله، ولن يُضَيِّعه الله أبداً. قال: فنزل القرآنُ على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أَوْفَتْحُ هو؟ قال: «نعم». فطابت نفسه ورجع^(١).

قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق والوفاء؛ قاله الفراء^(٢). وقال ابن جريج وقاتدة: من الرضا بأمر البيعة على ألا يفرُّوا. وقال مقاتل: من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت^(٣). ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بايعوا.

وقيل: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الكآبة بصدِّ المشركين إياهم، وتخلُّفِ رؤيا النبي ﷺ عنهم؛ إذ^(٤) رأى أنه يدخل الكعبة، حتَّى قال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك رؤيا منام». وقال الصَّدِيق: لم يكن فيها الدخولُ في هذا العام.

والسكينة: الطمأنينة وسكون النفس إلى صدق الوعد. وقيل: الصبر.

﴿وَأَنْبَأَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قال قتادة وابن أبي ليلى: فتحٌ خبير. وقيل: فتحُ مكة^(٥).

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٧٥)، والبخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥): (٩٤).

(٢) النكت والعيون ٣١٦/٥.

(٣) ذكر قول مقاتل الماوردي في النكت والعيون ٣١٦/٥، وابن عطية في المحرر الوجيز ١٣٤/٥ قال ابن عطية: وهذا ضعيف: فيه مذمة للصحابة.

(٤) في (د) و(م): إذا.

(٥) النكت والعيون ٣١٦/٥، وقول قتادة وابن أبي ليلى أخرجه الطبري ٢٧٨/٢١.

وَقُرْئِ: «وَأَتَاهُمْ»^(١).

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني: أموال خيبر، وكانت خيبر ذات عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكة. ف«مَغَانِمَ» على هذا بدلٌ من «فَتْحًا قَرِيبًا»، والواو مقحمة. وقيل: «وَمَغَانِمَ» فارس والروم.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ قال ابن عباس ومجاهد: إنها المغانم التي تكون إلى يوم القيامة. وقال ابن زيد: هي مغانم خيبر. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي: خيبر؛ قاله مجاهد. وقال ابن عباس: عَجَّلَ لَكُمْ صلح الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ يعني أهل مكة؛ كَفَّهُمْ عَنْكُمْ بالصلح. وقال قتادة: كَفَّ أَيْدِيَ الْيَهُودِ عَنِ الْمَدِينَةِ بَعْدَ خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْحَدِيبَةِ وَخَيْبَرَ. وَهُوَ الْاِخْتِيَارُ الطَّبْرِيُّ^(٢)؛ لِأَنَّ كَفَّ أَيْدِيَ الْمُشْرِكِينَ بِالْحَدِيبَةِ مَذْكُورٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [الفتح: ٢٤]. وقال ابن عباس: في «كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ» يعني عُيَيْنَةَ ابْنَ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ وَعُوفَ بْنَ مَالِكِ النَّضْرِيِّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمَا؛ إِذْ جَاؤُوا لِيَنْصُرُوا أَهْلَ خَيْبَرَ وَالنَّبِيَّ ﷺ مُحَاصِرٌ لَهُمْ؛ فَالْقَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَكَفَّهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ^(٣).

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولتكون هزيمتهم وسلامتكم آية للمؤمنين؛ فيعلموا أَنَّ اللَّهَ يَحْرُسُهُمْ فِي مَشْهَدِهِمْ وَمَغِيبِهِمْ^(٤). وقيل: أي: وليكون^(٥) كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٩٦/٨، ونسبها للحسن ونوح القارئ، وهي قراءة شاذة.

(٢) في تفسيره ٢٨٢/٢١، والأقوال السالفة جميعها أخرجها الطبري ٢٧٩/٢١-٢٨٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢٠١/٤.

(٤) تفسير الطبري ٢٨٣/٢١.

(٥) في (ف) و(م): ولتكون.

آيةً للمؤمنين. وقيل: أي: ولتكون هذه التي عَجَّلَهَا لكم آيةً للمؤمنين على صدقك حيث وعدتهم أَنْ يصبوها^(١).

والواو في «وَلِتَكُونَ» مقحمةٌ عند الكوفيين. وقال البصريون: عاطفةٌ على مضمر، أي: وكفَّ أيدي النَّاسِ عنكم لتشكروه ولتكون آيةً للمؤمنين^(٢).

﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: يزيدكم هُدىً، أو يثبتكم على الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى﴾ «أُخْرَى» معطوفة على «هذه»؛ أي: فعَجَّلَ لكم هذه المغانم ومغانم أخرى^(٣).

﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قال ابن عباس: هي الفتوح التي فُتحت على المسلمين؛ كأرض فارس والروم، وجميع ما فتحه المسلمون^(٤). وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبي ليلى^(٥).

وعن ابن عباس أيضاً والضَّحَّاك وابن زيد وابن إسحاق: هي خيبر، وَعَدَّهَا اللهُ نبيَّه قبل أن يفتحها، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها^(٦).

وعن الحسن أيضاً وقاتدة: هو فتح مَكَّة^(٧). وقال عكرمة: حُنين^(٨)؛ لأنَّه قال:

(١) ينظر النكت والعيون ٣١٧/٥، وزاد المسير ٤٣٦/٧.

(٢) ينظر الخلاف بين الكوفيين والبصريين على زيادة الواو في الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات الأنباري ٤٥٦/٢.

(٣) الكشاف ٥٤٧/٣.

(٤) النكت والعيون ٣١٨/٥.

(٥) أخرج قول ابن عباس والحسن وابن أبي ليلى الطبري ٢٨٤/٢١، وقول مقاتل في تفسير البغوي ١٩٨/٤.

(٦) أخرج قولهم الطبري ٢٨٥/٢١.

(٧) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١٣٥/٥ ورجحه. ورجحه أيضاً الطبري ٢٨٦/٢١.

(٨) تفسير البغوي ١٩٨/٤.

﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾. وهذا يدلُّ على تقدُّم محاولة لها، وفوات دَرْكِ المطلوب في الحال، كما كان في مَكَّة؛ قاله القشيري.

وقال مجاهد: هي ما يكون إلى يوم القيامة^(١).

ومعنى ﴿فَدَّ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾: أي: أعدّها لكم، فهي كالشيء الذي قد أحيط به من جوانبه، فهو محصورٌ لا يفوت، وأنتم وإن لم تقدرُوا عليها في الحال؛ فهي محبوسةٌ عليكم لا تفوتكم.

وقيل: ﴿أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾: علم أنها ستكون لكم، كما قال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقيل: حفظها الله عليكم؛ ليكون فتحها لكم^(٢). ﴿وَكَاثَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ﴾ قال قتادة: يعني: كفار قريش في الحديبية^(٣). وقيل: «وَلَوْ قَاتَلَكُم» عَظْفَانِ وَأَسَدِ، والذين أرادوا نُصرة أهل خيبر^(٤)؛ لكانت الدائرة عليهم.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: طريقة الله وعاداته السالفة نصرُ أوليائه على أعدائه. وانتصب «سُنَّة» على المصدر. وقيل: «سُنَّة» الله أي: كَسُنَّةِ الله^(٥). والسنة: الطريقة والسيرة^(٦). قال:

(١) معاني القرآن للنحاس ٥٠٧/٦.

(٢) النكت والعيون ٣١٨/٥.

(٣) أخرجه الطبري ٢٨٧/٢١.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ١٩٨/٤.

(٥) تفسير البغوي ١٩٨/٤.

(٦) الصحاح (سنن).

فَلَا تَجْرَعَنَّ مِنْ سُنتَةٍ^(١) أَنْتَ سِرْتَهَا فَأَوَّلُ رَاضٍ سُنَّةً مِنْ يَسِيرِهَا^(٢)
وَالسُّنَّةُ أَيْضاً: ضَرْبٌ مِنْ تَمْرِ الْمَدِينَةِ^(٣). ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ
أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢٤)

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وهي
الحديبية^(٤).

﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ رَوَى يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ قَالَ: أَخْبَرَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ
عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَبَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ جَبَلِ التَّنْعِيمِ
مَتَسَلِّحِينَ، يَرِيدُونَ غِرَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ فَأَخَذْنَاهُمْ سِلْمًا فَاسْتَحْيَيْنَاهُمْ؛ فَأَنْزَلَ
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ
عَلَيْهِمْ﴾^(٥).

وقال عبد الله بن مُغَفَّلِ الْمُزَنِيِّ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْحَدِيبِيَّةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ الَّتِي
قَالَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ؛ فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ، إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا ثَلَاثُونَ شَابًا عَلَيْهِمُ السَّلَاحُ، فَتَارَوْا
فِي وَجُوهِنَا، فَدَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَخَذَ اللَّهُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«هَلْ جِئْتُمْ فِي عَهْدِ أَحَدٍ، أَوْ هَلْ جَعَلْ لَكُمْ أَحَدٌ أَمَانًا». قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا، فَخَلَّى
سَبِيلَهُمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ الآية^(٦).

(١) في (م): سيرة.

(٢) البيت لخالد بن زهير الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١٥٧/١.

(٣) الصحاح (سنن).

(٤) النكت والعيون ٣١٨/٥، وهو قول أنس كما في زاد المسير ٤٣٨/٧.

(٥) أخرجه أحمد (١٢٢٥٤)، ومسلم (١٨٠٨). وفيهما: فأخذهم سلماً فاستحياهم. والفرزة: هي الغفلة.
الصحاح (غرر).

(٦) أخرجه مطولاً - أحمد (١٦٨٠٠)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٧).

وذكر ابن هشام عن وكيع: وكانت قريش قد جاء منهم نحو سبعين رجلاً أو ثمانين رجلاً للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة في أطرافهم؛ ففطن المسلمون لهم، فأخذوهم أسرى، وكان ذلك، والسفراء يمشون بينهم في الصلح، فأطلقهم رسول الله ﷺ، فهم الذين يُسمَوْنَ العتقاء، ومنهم معاوية وأبوه^(١).

وقال مجاهد: أقبل النبي ﷺ مُعْتَمِراً، إذ أخذ أصحابه ناساً من الحرم غافلين، فأرسلهم النبي ﷺ؛ فذلك الإظفار ببطن مكة^(٢).

وقال قتادة: دُكِرَ لنا أنَّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: زُنيَم، اظَّلَعَ الثنية من الحديدية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه؛ فبعث النبي ﷺ خيلاً، فأتوا باثني عشر فارساً من الكفار، فقال لهم النبي ﷺ: «هل لكم عليّ ذمّة؟» قالوا: لا. فأرسلهم، فنزلت^(٣). وقال ابن أبيزى والكلبي: هم أهل الحديدية، كفَّ الله أيديهم عن المسلمين حتى وقع الصلح، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين، وكفَّ أيدي المسلمين عنهم.

وقد تقدّم أن خالد بن الوليد كان في خيل المشركين^(٤). قال القشيري: فهذه رواية، والصحيح أنه كان مع النبي ﷺ في ذلك الوقت.

وقد قال سلمة بن الأكوع: كانوا في أمر الصلح إذ أقبل أبو سفيان، فإذا الوادي يسير بالرجال والسلاح، قال: فجئت بستة من المشركين أسوفهم متسلحين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً؛ فأتيت بهم رسول الله ﷺ^(٥).

وكان عمر قال في الطريق: يا رسول الله، نأتي قوماً حربياً وليس معنا سلاح

(١) الدرر لابن عبد البر ص ٢٢٥.

(٢) تفسير مجاهد ٢/٦٠١-٦٠٢، وأخرجه الطبري ٢١/٢٩٠.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/٢٩٠-٢٩١.

(٤) ص ٣١٤ من هذا الجزء.

(٥) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة في مصنفه ١٤/٤٤٠-٤٤١.

ولا كُراع؟ فبعث رسولُ الله ﷺ إلى المدينة من الطريق، فأتوه بكلِّ سلاحٍ وكُراعٍ كان فيها، وأخبر رسولُ الله ﷺ أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهلٍ خرج إليك في خمس مئة فارس؛ فقال رسولُ الله ﷺ لخالد بن الوليد: هذا ابنُ عمِّك أذاك في خمس مئة. فقال خالد: أنا سيفُ الله وسيفُ رسوله، فيومئذٍ سُمِّي بسيفِ الله، فخرج ومعه خيلٌ، وهزم الكفارَ ودفعهم إلى حواطِ مكة^(١). وهذه الروايةُ أصحُّ.

وكان بينهم قتالٌ بالحجارة^(٢). وقيل: بالتَّبَلِ والطُّفْرِ^(٣). وقيل: أراد بكفِّ اليد أنَّه شَرَطَ في الكتاب أنَّ من جاءنا منهم فهو رَدٌّ عليهم، فخرج أقوامٌ من مكةَ مسلمون، وخافوا أن يردَّهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المشركين، فلحقوا بالسَّاحل، ومنهم أبو بصير، وجعلوا يُغيرون على الكفار ويأخذون غيرهم، حتى جاء كبارُ قريشٍ إلى النبيِّ ﷺ وقالوا: اضممهم إليك حتى نأمن؛ ففعل^(٤).

وقيل: هَمَّتْ غَطَفَانُ وأسدُ منع المسلمين من يهود خيبر^(٥)؛ لأنَّهم كانوا حلفاءهم، فمنعهم الله عن ذلك؛ فهو كفُّ اليد.

﴿بَيِّنَ مَكَّةَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يريد به مكة. الثاني: الحُدَيْبِيَّةُ؛ لأنَّ بعضها مضافٌ إلى الحرم. قال الماوردي^(٦): وفي قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمُ عَلَيْهِمْ﴾: بفتح مكة^(٧). وتكون هذه نزلت بعد فتح مكة، وفيها دليلٌ على أنَّ مكةَ فُتحت صلحاً؛

(١) أخرجه الطبري ٢٩١/٢١ عن ابن أبيزى. والكراع: اسم يجمع الخيل. الصحاح (كراع).

(٢) هو قول ابن عباس كما في الكشاف ٥٤٧/٣.

(٣) هو قول مقاتل كما في زاد المسير ٤٣٨/٧. والطُّفْرُ: هو ما وراء معقد الوتر إلى طرف القوس، أو طرف القوس. القاموس (ظفر).

(٤) قصة أبي بصير أخرجها أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٥) ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور ٧٥/٦، وعزاه لابن المنذر عن ابن جريج.

(٦) في النكت والعيون ٣١٨/٥، وما قبله منه.

(٧) يعني أظفركم عليهم بفتح مكة، وهو أحد ثلاثة أقوال في تفسير الآية، ذكرها الماوردي، واقتصر المصنف على الأول.

لقوله عز وجل: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾.

قلت: الصحيح أن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة، حسب ما قدمناه عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين.

وروى الترمذي قال: حدثنا عبد بن حميد، قال: حدثني سليمان بن حرب، قال: حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت، عن أنس؛ أن ثمانين هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم، عند صلاة الصبح، وهم يريدون أن يقتلوه؛ فأخذوا أخذاً، فأعقهم رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وقد تقدم^(١).

وأما فتح مكة، فالذي تدل عليه الأخبار أنها إنما فتحت عنوة، وقد مضى القول في ذلك في «الحج» وغيرها^(٢). ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَرَأَيْتُمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَتُصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: قريشاً؛ منعوكم دخول المسجد الحرام عام الحديبية، حين أحرم النبي ﷺ مع أصحابه بعمره^(٣)، ومنعوا الهدى وحبسوه عن أن يبلغ محله. وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكنه حملتهم الأنفة، ودعتهم

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٤)، وتقدم ص ٣٢٣ من هذا الجزء.

(٢) ٣٥٢/١٤.

(٣) النكت والعيون ٣١٩/٥.

حَمِيَّةُ الجاهلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه ديناً، فَوَبَّخَهُم الله على ذلك وتوَعَّدَهُم عليه، وأدخل الأُنس على رسول الله ﷺ بيانه ووعدته^(١).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا﴾ أي: محبوساً. وقيل: واقفاً^(٢). وقال أبو عمرو بن العلاء: مجموعاً.

الجوهري^(٣): عَكَفَهُ، أي: حبسه ووقفه، يَعْكَفُهُ وَيَعْكَفُهُ عَكْفًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا﴾؛ يقال: ما عَكَفَكَ عن كذا. ومنه الاعتكاف في المسجد، وهو الاحتباس.

﴿أَنْ يَلْبَغَ مَحَلَّهُ﴾ أي: مَنْحَرَهُ؛ قاله الفراء^(٤). وقال الشافعي ﷺ: الحَرَمُ^(٥). وكذا قال أبو حنيفة ﷺ: الْمُحَصَّرُ محلُّ هَذِيهِ الحَرَمِ^(٦). والمَحِلُّ؛ بكسر الحاء: غايةُ الشيء، وبالفتح: هو الموضع الذي يَحُلُّهُ الناس. وكان الهَدْيُ سبعين بَدَنَةً^(٧)، ولكن الله بفضلِه جعل ذلك الموضع له مَحِلًّا^(٨). وقد اختلف العلماء في هذا على ما تقدّم بيانه في «البقرة»^(٩) عند قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُخْضِرْتُمْ﴾ [الآية: ١٩٦] والصحيح ما ذكرناه.

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: نَحَرْنَا مع رسول الله ﷺ عامَ الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة^(١٠).

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٩٤.

(٢) في (م) موقوفاً. والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٣١٩/٥، والكلام منه.

(٣) في الصحاح (عكف).

(٤) في معاني القرآن ٦٨/٣.

(٥) النكت والعيون ٣١٩/٥.

(٦) الكلام بنحوه في أحكام القرآن للكلبي الطبري ٤/٣٧٨.

(٧) النكت والعيون ٣١٩/٥.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٩٤.

(٩) ٢٨٣-٢٨٤/٣.

(١٠) صحيح مسلم (١٣١٨): (٣٥٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤١٢٧).

وعنه قال: اشتركنا مع رسول الله ﷺ في الحجِّ والعُمرة، كلُّ سبعةٍ في بدنة. فقال رجلٌ لجابر: أَيْشَتَرَكَ في البدنة ما يُشترك في الجَزُور؟ قال: ما هي إلا من البُدُن. وحضر جابرُ الحديبية قال: ونحَرْنَا يومئذٍ سبعينَ بَدَنَةً، اشتركنا كلُّ سبعةٍ في بَدَنَةٍ^(١).

وفي البخاري^(٢) عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ مُعْتَمِرِينَ؛ فَحَالَ كِفَارُ قَرِيشٍ دُونَ الْبَيْتِ، فَنَحَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَدَنَةً، وَحَلَقَ رَأْسَهُ.

قيل: إنَّ الذي حلق رأسه يومئذٍ خِرَاشُ بن أمية بن أبي العيص الخزاعي^(٣). وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينحروا ويحلُّوا؛ ففعلوا بعد توقُّفٍ كان منهم أغضب رسول الله ﷺ. فقالت له أم سلمة: لو نحرنا لنحروا؛ فنحر رسول الله ﷺ هَدْيَهُ، وَنَحَرُوا بِنَحْوِهِ، وَحَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ، وَدَعَا لِلْمُحَلِّقِينَ ثَلَاثًا وَلِلْمَقْصُرِينَ مَرَّةً^(٤). ورأى كعب بن عُجرَةَ والقَمْلُ يسقط على وجهه؛ فقال: «أَيُؤْذِيكَ هَوَامُكَ؟» قال: نعم؛ فَأَمَرَهُ أَنْ يَحِلِّقَ وَهُوَ بِالْحَدِيبِيَّةِ. خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَالدَّارِقُطَنِيُّ^(٥). وقد مضى في «البقرة»^(٦).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالْمَدْيَنَ﴾ الْهَدْيِيُّ وَالْهَدْيِيُّ لَغْتَان. وَقُرئ: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ

(١) صحيح مسلم (١٣١٨): (٣٥٣)، وأخرجه مختصراً أحمد (١٥٠٤٣).

(٢) برقم (١٨١٢).

(٣) الدرر ص ٢٢٥، وفيه، وفي سيرة ابن هشام ٣١٩/٢: ابن الفضل الخزاعي، بدل: ابن أبي العيص. وهو خراش بن أمية بن ربيعة بن الفضل الخزاعي، مدني، شهد مع رسول الله ﷺ الحديبية وخيبر وما بعدهما من المشاهد، توفي آخر خلافة معاوية. الإصابة ٨٦/٣، والاستيعاب (بهامش الإصابة) ١٩١/٣-١٩٢.

(٤) الدرر ص ٢٢٥، وقصة أم سلمة أخرجه البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم (٢٧٣١-٢٧٣٢) وسلف بعضه ص ٣٢٥ من هذا الجزء. ودعاء النبي للمحلِّقين ثم للمقصرين سلف ٢٨٧/٣.

(٥) صحيح البخاري (١٨١٧)، وسنن الدارقطني (٢٧٨٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٨١١٣)، ومسلم (١٢٠١).

(٦) ٢٩٠/٣.

مَحَلَّةٌ ﴿البقرة: ١٩٦﴾ بالتخفيف والتشديد^(١)؛ الواحدة هَذِيَّةٌ [وهَدِيَّةٌ]^(٢). وقد مضى في «البقرة» أيضاً^(٣). وهو معطوفٌ على الكاف والميم من «صَدُّوكُمْ». و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال، وموضع «أن» من قوله: «أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ» نُصِبَ على تقدير الحَمَلِ على «صَدُّوكُمْ» أي: صَدُّوكُمْ وصدُّوا الهَدْيَ عن أن يبلغ^(٤). ويجوز أن يكون مفعولاً له؛ كأنه قال: وصدُّوا الهَدْيَ كراهيةً أن يبلغ مَحَلَّهُ. أبو علي: لا يصحُّ حمله على العَكْفِ^(٥)؛ لأنَّا لا نعلم «عكف» جاء متعدياً^(٦)، ومجيءُ «مَعْكُوفًا» في الآية يجوز أن يكون محمولاً على المعنى؛ كأنه لما كان حَبْساً حُمِلَ المعنى على ذلك، كما حُمِلَ الرَّفْثُ على معنى الإفضاء، فَعُدِّيَ بالي، فإن حُمِلَ على ذلك كان موضعه نَصْباً على قياس قول سيبويه، وجراً على قياس قول الخليل. أو يكون مفعولاً له؛ كأنه قال: محبوساً كراهةً^(٧) أن يبلغ مَحَلَّهُ. ويجوز تقدير الجرِّ في «أن»؛ لأنَّ «عن» تقدَّمت؛ فكأنه قال: وصدُّوكم عن المسجد الحرام، وصدُّوا الهَدْيَ عن أن يبلغ مَحَلَّهُ. ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس: مررتُ برجلٍ إنَّ زَيْدٌ وإنَّ عمرو؛ فأضمر الجارَّ لتقدُّم ذكره.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ تَعَلَّمُوهُمُ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبِكُمْ مِنْهُمْ

مَعْرَةً يَغْيِرُ عَلَيْهِمْ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ يعني المستضعفين من المؤمنين بمكة

(١) القراءة بالتشديد هي قراءة الأعرج كما في القراءات الشاذة ص ١٢. وبالتخفيف قراءة الجمهور.

(٢) الصحاح (هدي) وما بين حاصرتين منه.

(٣) ٢٨٢/٣.

(٤) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢٠٢/٤.

(٥) المثبت من (ق) و(م)، وفي غيرهما: العطف.

(٦) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١٣٦/٥.

(٧) في (م): كراهية.

وسط الكفار^(١)؛ كسلمة بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل، وأشباههم.

﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي: تعرفوهم. وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون^(٢).

﴿أَنْ تَطَّوُّهُمْ﴾ بالقتل والإيقاع بهم؛ يقال: وَطَّئْتُ القوم، أي: أوقعتُ بهم. و«أَنْ» يجوز أَنْ يكون رفعاً على البدل من «رجال»، ونساء» كأنه قال: ولولا وَطَّوُّكُمْ رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات. ويجوز أَنْ يكون نصباً على البدل من الهاء والميم في «تَعْلَمُوهُمْ»؛ فيكون التقدير: لم تعلموا وَطَّأهم؛ وهو في الوجهين بدلُ الاشتمال. و«لَمْ تَعْلَمُوهُمْ» نعتٌ لـ«رجال» و«نساء». وجواب «لَوْلَا» محذوف^(٣)؛ والتقدير: ولولا^(٤) أَنْ تَطَّوُّوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموهم، لِأَذِنَ اللهُ لكم في دخول مكة، ولسَلَّطكم عليهم؛ وَلَكِنَّا صُنَّا من كان فيها يَكْتُمُ إيمانه خوفاً^(٥). وقال الضَّحَّاك: لولا مَنْ في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات، لم تعلموهم^(٦) أَنْ تَطَّوُّوا آباءهم فيهلك أبناؤهم^(٧).

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَتَصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المَعْرَةُ: العيب، وهي مَفْعَلَةٌ من العُر، وهو الجَرْب، أي: يقول المشركون: قد قتلوا أهل دينهم. وقيل: المعنى: يصيبكم من قتلهم ما يلزمكم من أجله كفارة قتل الخطأ؛ لِأَنَّ الله تعالى إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجراً منها ولم يعلم بإيمانه، الكفارة دون الدية في قوله: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

(١) الوسيط للواحد ١٤٣/٤ .

(٢) الوجيز بهامش مراح لبيد ٣٠٩/٢ .

(٣) مشكل إعراب القرآن ٦٧٨/٢ .

(٤) في (م): لو.

(٥) لفظة: خوفاً. ليست في (م). وينظر تفسير الطبري ٣٠٦/٢١، وأحكام القرآن لابن العربي ١٦٩٥/٤ .

(٦) في (ز) و(ظ) و(ف): تعلموا. والمثبت من (خ) و(ق) و(م).

(٧) النكت والعيون ٣٢٠/٥ .

مُؤْمِنَةٌ ﴿النساء: ٩٢﴾ قاله الكلبي ومقاتل وغيرهما^(١). وقد مضى في «النساء» القول فيه^(٢).

وقال ابن زيد: «مَعْرَةٌ»: إثم؛ وقاله الجوهري^(٣). ابن إسحاق^(٤): غُرْم الدِّية. قطرب: شِدَّة. وقيل: غَم^(٥).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَغْيِرْ عَلِيمٌ﴾ تفضيلٌ للصحابة، وإخبارٌ عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية، والعصمة عن التعدي، حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحداً، لكان عن غير قصد. وهذا كما وصفت النملة عن جند سليمان عليه السلام في قولها: ﴿لَا يَحِطُّكُمْ سَيْمَنٌ وَجُنُودُهُمْ وَلَا يَشْعُرُونَ﴾^(٦) [النمل: ١٨].

قوله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ اللام في «لِيَدْخُلَ» متعلقة بمحذوف^(٧)، أي: لو قتلتموهم لأدخلهم الله في رحمته^(٨). ويجوز أن تتعلق بالإيمان^(٩). ولا تحملُ على مؤمنين دون مؤمناتٍ، ولا على مؤمناتٍ دون مؤمنين؛ لأنَّ الجميع يدخلون في الرحمة.

وقيل: المعنى لم يأذن الله لكم في قتال المشركين، لئسَلَمَ بعد الصلح من قضى أن يُسلم من أهل مكة؛ وكذلك كان، أسَلَمَ الكثير منهم وحَسَنَ إسلامُهُ، ودخلوا في رحمته، أي: جنته.

(١) نسبة للكلبي الماوردي في النكت والعيون ٥/٣٢٠. وهو في تفسير الطبري ٢١/٣٠٦. دون نسبة.

(٢) ٧/٢٥.

(٣) في الصحاح (عرر)، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ٢١/٣٠٥.

(٤) في (م): وقال الجوهري وابن إسحاق. وهو خطأ.

(٥) النكت والعيون ٥/٣٢٠.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٩٥.

(٧) الوسيط للواحد ٤/١٤٣.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/٥١٠.

(٩) والتقدير - كما في المحرر الوجيز ٥/١٣٧ - : لولا قوم مؤمنون آمنوا ليدخل الله من يشاء في رحمته.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: تميزوا؛ قاله القُتَيْبِيُّ (١). وقيل: لو تفرقوا؛ قاله الكلبي. وقيل: لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار، لعذب الكفار بالسيف؛ قاله الضَّحَّاك. ولكنَّ الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار (٢). وقال عليٌّ ؓ: سألتُ النبيَّ ﷺ عن هذه الآية: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقال: «هم المشركون من أجداد نبيِّ الله، ومن كان بعدهم وفي عصرهم، كان في أصلابهم قومٌ مؤمنون، فلو تزيَّل المؤمنون عن أصلاب الكافرين، لعذب الله تعالى الكافرين عذاباً أليماً» (٣).

الثالثة: هذه الآية دليلٌ على مراعاة الكافر في حرمة المؤمن؛ إذ لا يمكن إذابة الكافر إلا بإذابة (٤) المؤمن. قال أبو زيد: قلت لابن القاسم: رأيت لو أن قوماً من المشركين في حصنٍ من حصونهم، حصرهم أهلُ الإسلام، وفيهم قومٌ من المسلمين أسارى في أيديهم، أيحرق هذا الحصنُ أم لا؟ قال: سمعت مالكا، وسئل عن قومٍ من المشركين في مراكبهم: أنرمي في مراكبهم بالنار ومعهم الأسارى في مراكبهم؟ قال: فقال مالك: لا أرى ذلك؛ لقوله تعالى لأهل مكة: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (٥). وكذلك لو تترس كافرٌ بمسلم، لم يجز رميه. وإن فعل ذلك فاعلٌ فأتلف أحدًا من المسلمين، فعليه الدية والكفارة. فإن لم يعلموا فلا دية ولا كفارة؛ وذلك أنهم إذا علموا فليس لهم أن يرموا، فإذا فعلوه صاروا قتلة خطأ، والدية على عواقلهم. فإن لم يعلموا، فلهم أن يرموا، وإذا أبيضوا الفعل لم يجز أن يبقى عليهم فيها تباعة.

قال ابن العربي: وقد قال جماعة: إنَّ معناه: لو تزيَّلوا عن بطون النساء وأصلاب

(١) في تأويل مشكل القرآن ص ٢٨٥.

(٢) النكت والعيون ٥/٣٢٠.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٣٧ مختصراً. وعزاه للثعلبي والنقاش. وفي رفعه نظر.

(٤) في (م): أذية الكافر إلا بأذية.

(٥) المدونة الكبرى ٣/٢٤، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٩٥-١٦٩٦.

الرجال. وهذا ضعيف؛ لأنَّ مَنْ فِي الصُّلْبِ أَوْ فِي الْبَطْنِ لَا يُوطَأُ، وَلَا تُصِيبُ مِنْهُ مَعْرَةٌ. وَهُوَ سَبْحَانَهُ قَدْ صَرَّحَ فَقَالَ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدَّ بِكُمُ الْكُفْرَانُ وَلَئِنَّكُمْ لَفِي غَمٍّ مِمَّا كَفَرْتُمْ﴾. وذلك لا ينطلق على مَنْ فِي بَطْنِ الْمَرْأَةِ وَصُلْبِ الرَّجَالِ، وَإِنَّمَا يَنْطَلِقُ عَلَى مِثْلِ الْوَلِيدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَسَلْمَةَ بْنِ هِشَامٍ، وَعِيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، وَأَبِي جَنْدَلِ بْنِ سَهِيلٍ، وَكَذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ. وَقَدْ حَاصَرْنَا مَدِينَةَ لِلرُّومِ^(١) فَحُبِسَ عَنْهُمْ الْمَاءُ، فَكَانُوا يُنْزِلُونَ الْأَسَارَى يَسْتَقُونَ لَهُمُ الْمَاءَ، فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَمِيهِمْ بِالنَّبْلِ، فَيَحْصِلُ لَهُمُ الْمَاءُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِنَا. وَقَدْ جَوَّزَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ وَالشُّورِيُّ الرَّمِيَّ فِي حِصُونِ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ أَسَارَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطْفَالِهِمْ. وَلَوْ تَتَرَسَّ كَافِرٌ بِوَلَدٍ مُسْلِمٍ، رُمِيَ الْمُشْرِكِ، وَإِنْ أُصِيبَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا دِيَةَ فِيهِ وَلَا كَفَّارَةَ. وَقَالَ الشُّورِيُّ: فِيهِ الْكَفَّارَةُ وَلَا دِيَةَ. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ بِقَوْلِنَا. وَهَذَا ظَاهِرٌ؛ فَإِنَّ التَّوَصُّلَ إِلَى الْمَبَاحِ بِالْمَحْظُورِ لَا يَجُوزُ؛ سَيِّمًا بِرُوحِ الْمُسْلِمِ؛ فَلَا قَوْلَ إِلَّا مَا قَالَهُ مَالِكٌ ﷺ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

قلت: قد يجوز قتل الترس، ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كلية قطعياً. فمعنى كونها ضرورية: أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس. ومعنى أنها كلية: أنه قاطعة لكل الأمة، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين؛ فإن لم يفعل، قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة. ومعنى كونها قطعياً: أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعاً^(٣).

قال^(٤) علماؤنا: وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها؛ لأنَّ الْفَرَضَ أَنَّ التَّرْسَ مَقْتُولٌ قَطْعاً؛ فِيمَا بِأَيْدِي الْعَدُوِّ فَتَحْصِلُ الْمَفْسَدَةُ الْعَظِيمَةُ، الَّتِي

(١) في النسخ عدا (ف): الروم. والمثبت من (ف) وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١٦٩٦/٤.

(٣) ينظر المستصفى ١/٤٢٠، والمحصل ٦/١٦٤.

(٤) في (ظ): قاله.

هي استيلاء العدو على كل المسلمين. وإما بأيدي المسلمين، فَيَهْلِكُ العدو وينجو المسلمون أجمعون. ولا يتأتى لعاقل أن يقول: لا يُقتل الثُّرس في هذه الصورة بوجه؛ لأنه يلزم^(١) منه ذهابُ الثُّرس والإسلام والمسلمين، لكن لما كانت هذه المصلحة غيرَ خاليةٍ من المفسدة، نفرت منها نفسٌ من لم يمعن النظر فيها؛ فإنَّ تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدمٌ أو كالعدم. والله أعلم.

الرابعة: قراءة العامة: «لَوْ تَزَيَّلُوا» إلا أبا حَيَّوَة فإنه قرأ: «تَزَايَلُوا»^(٢) وهو مثل «تَزَيَّلُوا» في المعنى. والتزاييل: التباين^(٣). و«تَزَيَّلُوا» تفعلوا، من زلت. وقيل: هي تَفَيَّلُوا.

«لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا» قيل: اللام جواب لكلامين؛ أحدهما: «لَوْلَا رِجَالٌ» والثاني: «لَوْ تَزَيَّلُوا»^(٤). وقيل جواب «لَوْلَا» محذوف؛ وقد تقدّم^(٥). و«لَوْ تَزَيَّلُوا» ابتداء كلام.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

العامل في «إِذْ» قوله تعالى: «لَعَذَّبْنَا» أي: لعذبناهم إذ فعلوا^(٦) هذا. أو فعلٌ مضمَّرٌ تقديره: واذكروا^(٧).

(١) في (م): تلزم.

(٢) المحرر الوجيز ١٣٧/٥.

(٣) الصحاح (زيل).

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ٢٨٥.

(٥) ص ٣٣٠ من هذا الجزء.

(٦) في (م): جعلوا.

(٧) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/٥٤٨-٥٤٩، والمحرر الوجيز ١٣٩/٥.

﴿الْحَمِيَّةُ﴾ فِعْلِيَّةٌ، وهي الْأَنْفَةُ. يقال: حَمَيْتُ عن كذا حَمِيَّةً - بالتشديد - وَمَحْمِيَّةً: إذا أَنْفَتَ منه وداخلك عارٌ وَأَنْفَةٌ أَنْ تَفْعَلَهُ^(١). ومنه قول المتلمّس:
ألا إنني منهم وعرضي عرضهم كذي الأنفِ يحمي أنفه أن يكشما^(٢)
أي: يمنع.

قال الزهريُّ: حَمَيْتُهُمْ: أَنْفَتُهُمْ من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة والاستفتاح بيسم الله الرحمن الرحيم، ومنعُهُمْ من دخول مكة^(٣). وكان الذي امتنع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمدٌ رسول الله: سهيلُ بن عمرو؛ على ما تقدّم^(٤).

وقال ابن بحر: حَمَيْتُهُمْ عَصَبَتُهُمْ لِأَلْهَتُهُمْ التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، والأَنْفَةُ من أن يعبدوا غيرها^(٥). وقيل: «حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ» إِنَّهُمْ قَالُوا: قَتَلُوا أبناءنا وإخواننا، ثم يدخلون علينا في منازلنا؛ واللات والعزرى لا يدخلها أبداً^(٦).

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أي: الطمأنينة والوقار ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: ثَبَّتَهُمْ على الرضا والتسليم، ولم يُدْخِلْ قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قيل: لا إله إلا الله. روي مرفوعاً من حديث أبي بن كعب عن النبي ﷺ^(٧). وهو قول عليّ، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن ميمون،

(١) الصحاح (حمى).

(٢) في النسخ الخطية: كذا الرأس يحمي أنفه أن يهشما، والمثبت من (م) وهو الموافق لخزانة الأدب ٥٨/١٠، والبيت فيه، بلفظ: يهشما. بدل: يكشما.

(٣) النكت والعيون ٣٢٠/٥.

(٤) ص ٣١٦ من هذا الجزء.

(٥) النكت والعيون ٣٢٠/٥.

(٦) الوسيط للواحد ١٤٣/٤، وتفسير البغوي ٢٠٤/٤.

(٧) أخرجه أحمد (٢١٢٥٥)، والترمذي (٣٦٢٥). قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة. قال: وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.

ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، والضحاك، وسلمة بن كهيل، وعبيد بن عمير، وطلحة ابن مُصَرِّف، والربيع، والسُّدِّي، وابن زيد. وقاله عطاء الخُراساني، وزاد: محمد رسول الله^(١).

وعن عليّ وابن عمر أيضاً: هي لا إله إلا الله، والله أكبر^(٢).

وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير^(٣).

وقال الزهري: بسم الله الرحمن الرحيم. يعني أن المشركين لم يُقَرُّوا بهذه الكلمة؛ فخصّ الله بها المؤمنين، وكلمة التَّقْوَى: هي التي يَتَّقَى بها من الشرك. وعن مجاهد أيضاً: أن كَلِمَةَ التَّقْوَى: الإخلاص^(٤).

﴿وَكَاَنُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي: أحقّ بها من كفار مكة؛ لأنّ الله تعالى اختارهم لدينه وضحبه نبيه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَليَمَا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

قال قتادة: كان رسول الله ﷺ رأى في المنام أنه يدخل مكة على هذه الصفة؛ فلما صالح قريشاً بالحُدَيْبِيَّة ارتاب المنافقون، حتى قال رسول الله ﷺ: إنه يدخل

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢١/٣١٠-٣١٣. عدا أقوال ابن عمر، وسلمة بن كهيل، وعبيد بن عمير، وطلحة بن مصرف، والربيع، والسدي. وذكر قول ابن عمر النحاس في إعراب القرآن ٤/٢٠٣، وذكر قول السدي ابن الجوزي في زاد المسير ٧/٤٤١.

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٢١/٣١٠-٣١١، ٣١٣.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/٣١٤ من طريق ابن جريج عن مجاهد وعطاء. وقول مجاهد فيه: كلمة التقوى: الإخلاص وسيأتي.

(٤) أخرج القولين الطبري ٢١/٣١٤.

مَكَّة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ فأعلمهم أنهم سيدخلون في غير ذلك العام، وأن رؤياه ﷺ حق^(١). وقيل: إن أبا بكر هو الذي قال: إن المنام لم يكن مؤقتاً بوقت، وأنه سيدخل. وروي أن الرؤيا كانت بالحديبية^(٢)، ورؤيا^(٣) الأنبياء حق. والرؤيا أحد وجوه الوحي إلى الأنبياء.

﴿لَتَدْخُلَنَّ﴾ أي: في العام القابل ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال ابن كيسان: إنه حكاية ما قيل للنبي ﷺ في منامه؛ خُوطِبَ في منامه بما جرت به العادة؛ فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك، ولهذا استثنى؛ تَأَدَّبَ بأدب الله تعالى حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣]^(٤). وقيل: خاطب الله العباد بما يُحِبُّ^(٥) أن يقولوه، كما قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. وقيل: استثنى فيما يعلم، ليستثني الخلق فيما لا يعلمون، قاله ثعلب^(٦). وقيل: كان الله علم أنه يُمِيتُ بعض هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية، فوقع الاستثناء لهذا المعنى، قاله الحسين بن الفضل^(٧). وقيل: الاستثناء من «أمينين»، وذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة^(٨). وقيل: معنى «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» إن أمركم الله بالدخول^(٩). وقيل: أي: إن سهَّلَ الله. وقيل: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» أي:

(١) القول بنحوه في النكت والعيون ٣٢٢/٥، وأخرجه مختصراً الطبري ٣١٦/٢١.

(٢) هو قول مجاهد. وأخرجه الطبري ٣١٦/٢١، وذكر الألويسي ١٢٠/٢٦ أن قول من قال: إن الرؤيا قبل خروجه إلى الحديبية هو الأصح.

(٣) في (م): وإن رؤيا.

(٤) القول بنحوه في تفسير البغوي ٢٠٥/٤.

(٥) في (ظ): يجب.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ١٤٥/٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٤٤٣/٧.

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٢٠٥/٤.

(٨) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤٤٤/٧ بنحوه، وعزاه للثعلبي.

(٩) هو قول الزجاج كما في معاني القرآن له ٢٨/٥.

كما شاء الله. وقال أبو عبيدة: «إن» بمعنى «إذ»^(١)، أي: إذ شاء الله، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] أي: إذ كنتم. وفيه بُعد، لأن «إذ» في الماضي من الفعل، و«إذا» في المستقبل، وهذا الدخول في المستقبل، فَوَعَدَهُمْ دُخُولَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَعَلَّقَهُ بِشَرْطِ الْمَشِيئَةِ، وذلك عام الحديبية؛ فأخبر أصحابه بذلك، فاستبشروا؛ ثم تأخر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه، فساءهم ذلك واشتد عليهم، وصالحهم ورجع؛ ثم أذن الله في العام المقبل، فأنزل الله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾. وإنما قيل له في المنام: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ فحكى في التنزيل ما قيل له في المنام؛ فليس هنا شك كما زعم بعضهم أن الاستثناء يدل على الشك، والله تعالى لا يشك، و«لَتَدْخُلَنَّ» تحقيق، فكيف يكون شك. ف«إن» بمعنى «إذا»^(٢).

﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من العدو. ﴿مُخَلِّفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُفَضِّرِينَ﴾ والتحليق والتقصير جميعاً للرجال، ولذلك غلب المذكر على المؤنث. والحلق أفضل، وليس للنساء إلا التقصير. وقد مضى القول في هذا في «البقرة»^(٣). وفي الصحيح أن معاوية أخذ من شعر النبي ﷺ على المرورة بمشقص^(٤). وهذا كان في العمرة لا في الحج؛ لأن النبي ﷺ خلق في حجته^(٥).

﴿لَا تَخَافُونَّ﴾ حال من المحلقين والمقصرين، والتقدير: غير خائفين^(٦). ﴿فَعَلِمَ

(١) ذكره عن أبي عبيدة الواحدي في الوسيط ١٤٥/٤، والبغوي في تفسيره ٢٠٥/٤، وأشار إليه النحاس في إعراب القرآن ٢٠٤/٥، ثم رده.

(٢) في النسخ الخطية: إذ، والمثبت من (م).

(٣) ٢٨٧/٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٦٨٨٥)، والبخاري (١٧٣٠)، ومسلم (١٢٤٦). والمشقص: نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض. النهاية (شقص).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١٦٩٧/٤ وخبر خلق النبي ﷺ في حجته؛ أخرجه أحمد (٤٨٨٩)، والبخاري (١٧٢٦)، ومسلم (١٣٠٤).

(٦) مشكل إعراب القرآن ٦٧٨/٢.

مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴿١﴾ أي: علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم^(١). وذلك أنه عليه الصلاة والسلام لما رجع، مضى منها إلى خَيْبَرَ فافتتحها، ورجع بأموالِ خَيْبَرَ، وأخذ من العُدَّة والقوَّة أضعافَ ما كان فيه في ذلك العام، وأقبلَ إلى مكة على أهبةٍ وقوَّةٍ وُعْدَةٍ بأضعاف ذلك.

وقال الكلبيُّ: أي علم أن دخولها إلى سنةٍ، ولم تعلموه أنتم. وقيل: عِلِمَ أن بمكَّة رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمناتٍ لم تعلموهم^(٢).

﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: من دون رؤيا النبي ﷺ فتح خيبر؛ قاله ابن زيد والضحاك^(٣). وقيل: فتح مكة. وقال مجاهد: هو صلح الحديبية^(٤)؛ وقاله أكثر المفسرين. قال الزُّهريُّ: ما فتح^(٥) في الإسلام كان أعظمَ من صلح الحديبية؛ لأنَّه إنَّما كان القتالُ حين تلتقي الناس، فلَمَّا كانت الهدنة؛ وَضَعَتِ الحربُ أوزارَها، وَأَمِنَ الناسَ بعضهم بعضاً؛ فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة، فلم يُكَلِّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، فلقد دخل في تينك السنين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر^(٦). يدلُّك على ذلك أنَّهم كانوا سنة ستَّ يومٍ الحديبية ألقاً وأربع مئة، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمانٍ في عشرة آلاف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾

(١) الوسيط ٤/١٤٥.

(٢) النكت والعيون ٥/٣٢٢.

(٣) أخرج قول ابن زيد الطبري ٢١/٣١٩.

(٤) تفسير مجاهد ٢/٦٠٣، وأخرجه الطبري ٢١/٣١٨.

(٥) في (ز) و(م): ما فتح الله.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/٣١٨، وفيه: ما فتح في الإسلام فتح.

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴿٢٨﴾ أي: يُعليه على كل الأديان. فالدين اسمٌ بمعنى المصدر، ويستوي لفظ الواحد والجمع فيه. وقيل: أي: لِيُظْهِرَ رَسُولَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ - أي: على الدين الذي هو شَرْعُهُ - بِالْحِجَّةِ، ثُمَّ بِالْيَدِ وَالسِّيفِ؛ وَنَسَخَ مَا عَدَاهُ.

﴿وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ «شَهِيدًا» نَصَبٌ عَلَى التَّفْسِيرِ، وَالْبَاءُ زَائِدَةٌ، أَي: كَفَى اللَّهُ شَهِيدًا لِنَبِيِّهِ ﷺ؛ وَشَهَادَتُهُ لَهُ تَبَيَّنَ صِحَّةَ نَبَوْتِهِ بِالْمُعْجَزَاتِ. وَقِيلَ: «شَهِيدًا» عَلَى مَا أُرْسِلَ بِهِ؛ لِأَنَّ الْكُفَّارَ أَبَوْا أَنْ يَكْتُبُوا: «هَذَا مَا صَالِحٌ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»^(١).

قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجَدًا يَتَنَبَّهُونَ فَضلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ «مُحَمَّدٌ» مبتدأ، و«رَسُولٌ» خبره. وقيل: «مُحَمَّدٌ» ابتداء، و«رَسُولُ اللَّهِ» نعته، «وَالَّذِينَ مَعَهُ» عطفٌ على المبتدأ، والخبر فيما بعده؛ فلا يُوقَفُ على هذا التقدير على «رَسُولُ اللَّهِ». وعلى الأول يُوقَفُ على «رَسُولُ اللَّهِ»؛ لِأَنَّ صِفَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَزِيدُ عَلَى مَا وَصَفَ بِهِ^(٢) أَصْحَابَهُ؛ فَيَكُونُ «مُحَمَّدٌ» ابتداءً، و«رَسُولُ اللَّهِ» الخبر؛ «وَالَّذِينَ مَعَهُ» ابتداءً ثانٍ، و«أَشِدَّاءُ» خبره، و«رُحَمَاءُ» خبر ثانٍ^(٣).

وكون الصفات في جملة أصحاب النبي ﷺ هو الأشبه. قال ابن عباس: أهل

(١) سلفت القصة ١٦/٣١٦، ٣١٨.

(٢) لفظة: به. ليست في (م).

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٧٨-٦٧٩.

الحديبية أشدّاء على الكفار، أي: غلاظ عليهم كالأسد على فريسته^(١). وقيل: المراد بـ«الَّذِينَ مَعَهُ» جميع المؤمنين.

﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يرحم بعضهم بعضاً. وقيل: متعاطفون متوادّون^(٢). وقرأ الحسن: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» بالنصب على الحال^(٣)، كأنه قال: والذين معه في حال شدّتهم على الكفار وتراحمهم بينهم ﴿تَرْبُهُمْ رُكْعًا سَجَدًا﴾ إخبار عن كثرة صلاتهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: يطلبون الجنة ورضا الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿سِيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ السّيما: العلامة؛ وفيها لغتان: المد والقصر، أي: لاحت علامات التهجد بالليل وأمارات السهر.

وفي سنن ابن ماجه قال: حدّثنا إسماعيل بن محمد الطّليحيّ قال: حدّثنا ثابت بن موسى أبو يزيد، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ، حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ»^(٤).

وقال ابن العربي^(٥): ودسّه قومٌ في حديث النبي ﷺ على وجه الغلط، وليس عن النبي ﷺ فيه ذكرٌ بحرف.

وقد روى ابن وهب عن مالك: ﴿سِيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ ذلك مما يتعلّق بجباههم من الأرض عند السجود؛ وبه قال سعيد بن جبیر. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: صَلَّى صَبِيحَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ، وَقَدْ وَكَّفَ الْمَسْجِدُ

(١) الوسيط للواحدى ١٤٦/٤ .

(٢) تفسير البغوي ٢٠٦/٤ .

(٣) القراءات الشاذة ص ١٤٣ ، والمحتسب ٢٧٦/٢ .

(٤) سنن ابن ماجه (١٣٣٣). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الكافي الشاف ص ١٥٤ : واتفق أئمة الحديث وابن عدي والدارقطني والعقيلي وابن حبان والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل. وقال ابن عدي: سرقه جماعة من ثابت كعبد الله بن شبرمة الشريكي وعبد الحميد بن بحر وغيرهما.

(٥) في أحكام القرآن ١٦٩٨/٤-١٦٩٩ .

وكان على عريش؛ فانصرف النبي ﷺ من صلاته وعلى جبهته وأرنبته أثر الماء والطين^(١).

وقال الحسن: هو بياضٌ يكون في الوجه يومَ القيامة^(٢). وقال سعيد بن جبير أيضاً، ورواه العوفي عن ابن عباس^(٣)، وقاله الزهري^(٤).

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة، وفيه: «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يُخْرِجَ برحمته من أراد من أهل النار؛ أمر الملائكة أن يُخرجوا من النار مَنْ كان لا يشرك بالله شيئاً، ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار، يعرفونهم^(٥) بأثر السجود، تأكل النارُ ابنَ آدمَ إلا أثرَ السجود، حرَّم الله على النار أن تأكلَ أثرَ السجود»^(٦).

وقال شهر بن حوشب: يكون موضعُ السجود من وجوههم كالقمر ليلةَ البدر^(٧).

وقال ابنُ عباسٍ ومجاهد: السِّمَا في الدنيا، وهو السَّمْتُ الحسن. وعن مجاهدٍ أيضاً: هو الخشوع والتواضع. قال منصور: سألتُ مجاهداً عن قوله تعالى: ﴿سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ أهو أثرٌ يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا؛ ربما يكون بين عيني الرجل مثل رُكبة العنز، وهو أقسى قلباً من الحجارة، ولكنه نورٌ في وجوههم من الخشوع^(٨).

(١) صحيح البخاري (٢٠١٨)، وصحيح مسلم (١١٦٧): (٢١٣) من حديث أبي سعيد الخدري ؓ، وهو عند أحمد (١١١٨٧). ومعنى وَكَف: قطر. الصحاح (وكف).

(٢) أخرجه الطبري ٢١/٣٢٣.

(٣) رواية العوفي عن ابن عباس في تفسير البغوي ٤/٢٠٦.

(٤) في (ز) و(ف) و(ق) و(م): قاله. دون واو. والمثبت من (خ) و(ظ) ورواية الزهري ذكرها الواحدي في الوسيط ٤/١٤٦.

(٥) لفظة: يعرفونهم. ليس في (ز) و(ق) و(م).

(٦) قطعة من حديث طويل أخرجه أحمد (٧٧١٧)، والبخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

(٧) تفسير البغوي ٤/٢٠٦.

(٨) أخرج أقوالهم الطبري ٢١/٣٢٣-٣٢٤.

وقال ابن جريج: هو الوقار والبهاء.

وقال شمر بن عطية: هو صفرة الوجه من قيام الليل^(١).

قال الحسن: إذا رأيتهم حسبتهم مرضى، وما هم بمرضى. وقال الضحّاك: أمّا إنّه ليس بالتذب في وجوههم، ولكنّه الصفرة^(٢).

وقال سفيان الثوري: يصلّون بالليل، فإذا أصبحوا رُؤي ذلك في وجوههم؛ بيانه قوله ﷺ: «من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار». وقد مضى القول فيه آنفاً.

وقال عطاء الخراساني: دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس^(٣).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ قال الفراء^(٤): فيه وجهان، إن شئت قلت: المعنى: ذلك مَثَلُهُمْ في التوراة وفي الإنجيل أيضاً؛ كمثلمهم في القرآن؛ فيكون الوقف على «الإنجيل». وإن شئت قلت: تمام الكلام: ذلك مَثَلُهُمْ في التوراة. ثم ابتداء فقال: ومثلمهم في الإنجيل^(٥). وكذا قال ابن عباس وغيره: هما مثلان؛ أحدهما في التوراة، والآخر في الإنجيل؛ فيوقف على هذا على «التوراة»^(٦). وقال مجاهد: هو مثل واحد^(٧)؛ يعني أنّ هذه صفتهم في التوراة والإنجيل، فلا يوقف على «التوراة» على هذا، ويوقف على «الإنجيل»، ويبتدئ: ﴿كَزَّرِعَ أَخْرَجَ شَطْرَهُ﴾ على معنى: وهم كزرع.

(١) أخرجه الطبري ٣٢٥/٢١ بلفظ: تَهَيَّج. بدل: صفرة.

(٢) تفسير البغوي ٢٠٦/٤.

(٣) تفسير البغوي ٢٠٦/٤.

(٤) في معاني القرآن ٦٩/٣.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٩٠١/٢، وكلام الفراء السالف منه.

(٦) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١٤٢/٥ دون نسبه إلى ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري ٣٢٩/٢١.

و«شَطَاءٌ» يعني فراخه وأولاده، قاله ابن زيد وغيره^(١). وقال مقاتل: هو نبتٌ واحد، فإذا خرج ما بعده فقد شَطَاءَهُ^(٢). قال الجوهرِيُّ: شَطَاءٌ، الزرع والنبات: فراخُهُ، والجمعُ: أشطاء. وقد أشطأ الزرعُ: خرج شَطْوُهُ. قال الأخفش في قوله: «أَخْرَجَ شَطَاءَهُ» أي: طَرَفَهُ^(٣). وحكاه الثعلبي عن الكسائي. وقال الفراء: أشطأ الزرعُ فهو مُشَطِيٌّ، إذا خرج. قال الشاعر:

أَخْرَجَ الشَّطَاءَ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى وَمِنَ الْأَشْجَارِ أَفْنَانَ الثَّمَرِ^(٤)
الرَّجَّاجِ^(٥): أَخْرَجَ شَطَاءَهُ، أي: نباته.

وقيل: إِنَّ الشَّطَاءَ شَوْكُ السَّنْبِلِ، والعرب أيضاً تسميه: السَّفَا، والبُهْمَى^(٦)، قاله قُطْرُب. وقيل: إِنَّهُ السَّنْبِلِ، فيخرج من الحبة عشرُ سنبلاتٍ وتسعُ وثمان؛ قاله الفراء^(٧)، حكاه الماوردي^(٨).

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان: «شَطَاءَهُ» بفتح الطاء، وأسكنَ الباقون^(٩). وقرأ أنسٌ ونصرُ بن عاصم وابنُ وثَّاب: «شَطَاءَهُ»، مثل: عصاه^(١٠). وقرأ الجحدريُّ وابن أبي

(١) أخرجه الطبري ٢١/٣٣٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/٢٠٦.

(٣) الصحاح (شطأ).

(٤) البيت للزبير بن العوام ؓ. وهو في جمهرة أشعار العرب ١/١٣٩، وفيه: يخرج. بدل: أخرج.

(٥) في معاني القرآن ٥/٢٩.

(٦) في النسخ الخطية: السفا والبهم، والمثبت من النكت والعيون والكلام منه. وقال في الصحاح: السَّفَا: شَوْكُ البُهْمَى، ونحوه في (م). وقال في القاموس: السَّفَا: كل شجر له شوك. والبُهْمَى: هو نبت (يشبه الشعير) تجدد به الغنم وجراداً شديداً ما دام أخضر، فإذا يبس هزَّ شوكه وامتنع. تهذيب اللغة ٦/٣٣٩.

(٧) في معاني القرآن ٣/٦٩.

(٨) في النكت والعيون ٥/٣٢٣.

(٩) السبعة ص ٦٠٤، والتيسير ص ٢٠٢.

(١٠) نسب هذه القراءة ابنُ جني في المحتسب ٢/٢٧٧ لعيسى الهمداني، ونسبها أبو حيان في البحر ٨/١٠٢ لزيد بن علي.

إسحاق: «شَطَه» بغير همز؛ وكلُّها لغاتٌ فيها^(١).

وهذا مثلٌ ضربَه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ؛ يعني أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون؛ فكان النبي ﷺ حين بدأ بالدُّعاء إلى دينه ضعيفاً، فأجابه الواحدُ بعد الواحد حتى قَوِيَ أمرُه؛ كالزَّرع يبدو بعد البَدْر ضعيفاً، فيقوَى حالاً بعد حالٍ حتى يغلُظ ساقُه^(٢) وأفراخُه. فكان هذا من أصحِّ مَثَلٍ، وأوضح^(٣) بيان.

وقال قتادة: مَثَلُ أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل مكتوبٌ أنه سَيَخْرُجُ من قومٍ ينبتون نباتَ الزَّرع يأمرُون بالمعروف، وينهَوْنَ عن المنكر^(٤).

﴿فَأَزَّرَهُ﴾ أي: قَوَاهُ وأعانَه وشدَّه؛ أي: قَوَّى الشَطَه الزَّرعَ. وقيل بالعكس، أي: قَوَّى الزَّرعُ الشَطَه^(٥).

وقراءةُ العامة: «أَزَّرَهُ» بالمدِّ. وقرأ ابن ذكوانٍ وأبو حيوَةَ وحُميد بن قيس: «فَأَزَّرَهُ» مقصورة، مثل: فَعَلَهُ^(٦). والمعروف المدُّ. قال امرؤ القيس:

بِمَحْنِيَةِ قَدِ أَزَّرَ الضَّالَّ نَبْتَهَا مَجَرَّ جِيوشِ غَانِمِينَ وَخُيِّبِ^(٧)

﴿فَأَسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾: على عودِه الذي يقوم عليه، فيكون ساقاً له^(٨). والسُّوق:

جمع الساق.

(١) نسبها للجحدري أبو حيان في البحر المحيط ١٠٣/٨.

(٢) في (ز) و(م): نباته، وفي (ق): شانه.

(٣) في (م): وأقوى. والمثبت من النسخ الخطية وهو الموافق للنكت والعيون ٣٢٤/٥ والكلام منه.

(٤) أخرجه الطبري ٣٣٠/٢١.

(٥) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١٤٢/٥.

(٦) قراءة ابن ذكوان - وهو راوية ابن عامر - في السبعة ص ٦٠٥، والتيسير ص ٢٠٢.

(٧) ديوان امرئ القيس ص ٤٥، قال شارحه: المحنية: حيث ينحني الوادي؛ وهو أخصب موضع فيه... وقوله: مجر جيوش. أي: هذه المحنية في موضع تمر الجيوش به من غانمٍ أو خائب، فلا ينزلها أحدٌ ليرعاها خوفاً من الجيوش؛ فذلك أوفر لخصبها، وأتم لكتلتها. اهـ. والضَّالُّ: السُّدْر البَرِّي، أو ما لا يسقيه إلا المطر منه. القاموس (ضال).

(٨) النكت والعيون ٣٢٣/٥.

﴿يُعْجِبُ الزَّرْعَ﴾ أي: يعجب هذا الزرع زراعته. وهو مثلٌ كما بيَّنا، فالزرع محمدٌ ﷺ، والشطءُ أصحابه، كانوا قليلاً فكثروا، وضعفاء فقووا، قاله الضحاك وغيره.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ اللام متعلقة بمحذوف، أي: فعَلَ اللهُ هذا لمحمدٍ ﷺ وأصحابه، ليغيب بهم الكفار^(١).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ﷺ وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة. ﴿مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً لا ينقطع، وهو الجنة.

وليست «مِن» في قوله: «منهم» مبعوضة لقوم من الصحابة دون قوم، ولكنها عامة مجنسة، مثل قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، لا يُقصد للتبعيض؛ لكنه يذهب إلى الجنس، أي: فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان، إذ كان الرجس يقع من أجناسٍ شتى؛ منها الزنى، والرِّبَا، وشربُ الخمر، والكذب. فأدخل «مِن» يفيدُ بها الجنس، وكذا «منهم»، أي: من هذا الجنس، يعني: جنس الصحابة. ويقال: أنفقَ نفقتك من الدراهم، أي: اجعل نفقتك هذا الجنس. وقد يُخصَّص أصحابُ محمدٍ ﷺ بوعد المغفرة تفضيلاً لهم، وإن وَعَدَ اللهُ جميعَ المؤمنين المغفرة.

وفي الآية جوابٌ آخر: وهو أن «من» مؤكدة للكلام، والمعنى وَعَدَهُمُ اللهُ كُلَّهُمُ مغفرةً وأجراً عظيماً. فجرى مجرى [قول] (٢) العربي: قطعْتُ من الثوب قميصاً؛ يريد قطعْتُ الثوبَ كُلَّهُ قميصاً. و«من» لم تبعض شيئاً. وشاهدُ هذا من القرآن: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢] معناه: ونزل القرآن شفاءً؛ لأنَّ كلَّ حرفٍ منه يَشفي، وليس الشفاءُ مختصاً به بعضه دون بعض. على أن من اللغويين من يقول:

(١) الوجيز (بحاشية مراح لبيد) ٣١٢/٢.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

«من» مجنسة؛ تقديرها: نُزِّلَ الشفاء من جنس القرآن، ومن جهة القرآن، ومن ناحية القرآن. قال زهير^(١):

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

أراد: من ناحية أم أوفى دمنة، أم من منازلها دمنة. وقال الآخر:

أخو رغائب يُعطيها ويسألها يأبى الظلّامة منه النّوقلُ الزُّفر^(٢)

ف«من» لم تُبعض شيئاً، إذ كان المقصد: يأبى الظلّامة؛ لأنه نوقلُ زُفر. والنّوقل:

الكثير العطاء. والزُّفر: حاملُ الأثقال والمؤن عن الناس.

الخامسة: روى أبو عروة الزبيرى من ولد الزبير: كُتِبَ عند مالك بن أنس، فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالك هذه الآية: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ حتى بلغ: ﴿يُعِجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾. فقال مالك: مَنْ أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته هذه الآية؛ ذكره الخطيب أبو بكر^(٣).

قلت: لقد أحسن مالك في مقالته، وأصاب في تأويله. فمن نقص واحد منهم، أو طعن عليه في روايته، فقد ردّ على الله ربّ العالمين، وأبطل شرائع المسلمين؛ قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ الآية. وقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. إلى غير ذلك من الآي التي تضمّنت الثناء عليهم، والشهادة لهم بالصدق والفلاح؛ قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾

(١) في ديوانه ص ٤، وسلف ٤/٤٧٣.

(٢) الكلام بنحوه في كتاب الأضداد للأنباري ص ٢٥٢-٢٥٣. والبيت لأعشى باهلة كما في الأصمعيات ص ٩٠.

(٣) لم نقف عليه عند الخطيب، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/٣٢٧.

[الحشر: ٨]، ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم، وقال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثم الذين يلونهم». وقال: «لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فلو أنَّ أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً، لم يُدرِكْ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَهُ» خرَّجهما البخاري^(١). وفي حديث آخر: «فلو أنَّ أحدكم أنفق ما في الأرض، لم يُدرِكْ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَهُ»^(٢).

قال أبو عبيد^(٣): معناه لم يُدرِكْ مُدَّ أحدهم إذا تصدَّق به، ولا نصف المُدِّ؛ فالنصيفُ هو النصفُ هنا. وكذلك يقال للعُشر: عَشِيرٌ، وللخُمس: خميسٌ، وللتَّسع: تَسيعٌ، وللثُّمن: ثَمينٌ، وللسَّبْع: سَبيعٌ، وللشُّدس: سَديسٌ، وللرُّبع: رَبيعٌ. ولم تقل العرب للثلث ثلث.

وفي البزَّار عن جابرٍ مرفوعاً صحيحاً: «إنَّ الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيِّين والمرسلين، واختار لي من أصحابي أربعة - يعني أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليّاً - فجعلهم أصحابي». وقال في أصحابي: كلُّهم خير^(٤).

وروى عُويم بن ساعدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ اختارني واختار لي أصحابي، فجعل لي منهم وزراء وأختاناً وأصهاراً، فمن سَبَّهم فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدلاً»^(٥).

(١) الحديث الأول أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، وهو عند أحمد (٣٥٩٤)، ومسلم (٢٥٣٣) عن عبد الله بن مسعود ؓ، والحديث الثاني أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، وهو عند أحمد (١١٠٧٩)، ومسلم (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري ؓ.

(٢) أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/٣٩٧-٣٩٨.

(٣) في غريب الحديث ٢/١٦٤ - ١٦٥.

(٤) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢٧٦٣). قال البزار: لا نعلمه يروى عن جابر إلا بهذا الإسناد، ولم يشارك عبد الله بن صالح في روايته هذه عن نافع بن يزيد أحد نعلمه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٦: رجاله ثقات وفي بعضهم خلاف.

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٠٠٠)، والطبراني في الأوسط (٤٥٩)، والكبير ١٧/٣٤٩، قال =

والأحاديث بهذا المعنى كثير^(١)، فحذّر من الوقوع في أحد منهم، كما فعل من طعن في الدين فقال: إِنَّ الْمُعَوَّدَتَيْنِ لَيْسَتَا مِنَ الْقُرْآنِ، وما صحَّ حديثٌ عن رسول الله ﷺ في تشبيتهما ودخولهما في جملة التنزيل، إلاّ عن عقبه بن عامر^(٢)، وعقبه بن عامرٍ ضعيفٌ لم يوافق غيره عليها، فروايته مُطَّرحة! وهذا ردُّ لما ذكرناه من الكتاب والسنة، وإبطالٌ لما نقلته لنا الصحابة من الملة. فإنَّ عقبه بن عامر بن عيسى الجُهني، ممن روى لنا الشريعة في الصحيحين: البخاري ومسلم وغيرهما، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم، وأثنى عليهم ووعدهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا. فمن نسبّه أو واحداً من الصحابة إلى كذبٍ، فهو خارجٌ عن الشريعة، مُبْطَلٌ للقرآن طاعنٌ على رسول الله ﷺ. ومتى ألحق واحدٌ منهم تكذيباً فقد سُبَّ؛ لأنّه لا عارٌ ولا عيبٌ بعد الكفر بالله أعظم من الكذب، وقد لعن رسول الله ﷺ من سبَّ أصحابه؛ فالمكذّب لأصغرهم - ولا صغيرٍ فيهم - داخلٌ في لعنة الله التي شهد بها رسول الله ﷺ، وألزمها كلّ من سبَّ واحداً من أصحابه، أو طعن عليه.

وعن عمر بن حبيب^(٣) قال: حضرتُ مجلسَ هارونَ الرشيد. فجرتُ مسألةً تنازعها الحضور، وعلتُ أصواتهم؛ فاحتجَّ بعضهم بحديثٍ يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ؛ فرفع بعضهم الحديث، وزادت المدافعة والخصام، حتى قال قائلون منهم: لا يُقبل هذا الحديث على رسول الله ﷺ؛ لأنَّ أبا هريرة مُتَّهَمٌ فيما يرويه،

= الطبراني في المعجم الأوسط: لا يروى عن عويم بن ساعدة إلا بهذا الإسناد، تفرد به محمد بن طلحة التيمي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦/١٠: وفيه من لم أعرفه. وأخرجه ابن حجر في الأمالي المطلقة ص ٧٠-٧١ وقال: هذا حديث حسن.

(١) في (م): كثيرة.

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم (٨١٤) عن عقبه بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة، لم ير مثلهن قط؟» ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

(٣) هو العدوي البصري القاضي، قال البخاري: يتكلمون فيه، وقال يحيى بن معين: ضعيف، كان يكذب. مات بالبصرة سنة سبع ومئتين. سير أعلام النبلاء ٩/٤٩٠-٤٩١.

وصرّحوا بتكذيبه، ورأيتُ الرشيدَ قد نحا نحوهم، ونصّر قولهم، فقلتُ أنا: الحديثُ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ، وأبو هريرةٌ صحيحُ النّقل، صدوقٌ فيما يرويه عن نبيِّ الله ﷺ وغيره. فنظر إليَّ الرشيدُ نظرَ مُغضَب، وقمتُ من المجلس فانصرفتُ إلى منزلي، فلم ألبثُ حتى قيل: صاحبُ البريد بالباب، فدخل فقال لي: أجب أميرَ المؤمنين إجابةً مقتول، وتحطّط وتكفّن! فقلت: اللهم إنك تعلم أنّي دفعتُ عن صاحبِ نبيِّك، وأجللتُ نبيِّك أن يُطعنَ على أصحابه، فسلمّني منه. فأدخلتُ على الرشيد وهو جالسٌ على كرسيٍّ من ذهب، حاسرٌ عن ذراعيه؛ بيده السيف، وبين يديه النّطع^(١)؛ فلما بصّرَ بي قال لي: يا عمرَ بنَ حبيب، أتتلقّاني من الرّدّ والدفع بما تلقّيتني به! فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّ الذي قُلتَه وجادلتَ عنه، فيه إزراءٌ^(٢) على رسول الله ﷺ [وعلى ما جاء به]. إذا كان أصحابه كذابين، فالشريعةُ باطلةٌ، والفرائضُ والأحكامُ في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود؛ كلّهُ مردودٌ غير مقبول! فرجع إلى نفسه ثم قال: أحييتني يا عمرَ بنَ حبيب أحياك الله، أحييتني يا عمرَ بنَ حبيب أحياك الله^(٣)؛ وأمر لي بعشرة آلاف درهم^(٤).

قلت: فالصحابا كلّهم عدول، أولياءُ الله تعالى وأصفياءُه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهبُ أهل السنة، والذي عليه الجماعةُ من أئمة هذه الأمة. وقد ذهبت سُردمةٌ لا مبالاةً بهم إلى أنّ حال الصحابة كحالٍ غيرهم، فيلزمُ البحثُ عن عدالتهم.

(١) النطع: بساطٌ من الأديم. القاموس (نطع).

(٢) في (م) إزدراء.

(٣) قوله: أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله. الثانية من (خ) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٩٦/١١ - ١٩٧. والقصة مخرجة فيه. وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) أخرج هذه القصة الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٩٦/١١-١٩٧، ومن طريقه المزني في تهذيب الكمال ٢١/٢٩٤-٢٩٥. ولا يخفى ما في هذه القصة من نكارة، فصاحبها عمر بن حبيب العدوي ضعيف متهم بالكذب كما تقدّم.

ومنهم من فرَّق بين حالهم في بداءة الأمر فقال: إنَّهم كانوا على العدالة إذ ذاك؛ ثم تعيَّرت بهم الأحوال، فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء؛ فلا بُدَّ من البحث . وهذا مردودٌ؛ فإنَّ خيار الصحابة وفضلاءهم كعليٍّ وطلحةَ والزُّبير وغيرهم ﷺ ممن أثنى الله عليهم وزكَّاهم، ورضي عنهم وأرضاهم، ووعدهم الجنة بقوله تعالى: ﴿مَغْفِرَةٌ وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وخاصةً العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول، هم القدوة مع علمهم بكثيرٍ من الفتن والأمر الجارية عليهم بعد نبيِّهم بإخباره لهم بذلك. وذلك غيرُ مُسقطٍ من مرتبتهم وفضلهم، إذ كانت تلك الأمور مبنيةً على الاجتهاد، وكلُّ مجتهدٍ مصيبٌ .

وسياتي الكلامُ في تلك الأمور في سورة الحجرات مبيِّنةً إن شاء الله تعالى^(١) .

تمَّ تفسيرُ سورة الفتح، والحمد لله.